
كتابي
حلمي مراد
ليالي البلقان
وكتب أخرى
اطلب مع هذا العدد هدية منفصلة في ٣٢ صفحة
القصة الأولى من "قصص كتابي للصغار"
روبنسن كروزو

كتابى

مجلة شهرية للثقافة العالمية
صاحبها ورئيس تحريرها : حلمى مراد

الكتاب رقم ١٠١

التحرير : ٢٣ شارع عرابى (توفيق سابقا) ، شقة ١١١ ، القاهرة ـ تليفون ٤٦٤٧٥

الناشر : دار الشعب ـ ٩٢ شارع قصر العينى ، القاهرة ـ تليفون ٣١٨١٠

ثمن النسخة : ١٥ قرشا

لوحة الغلاف والرسوم الداخلية

بريشة الفنان « هبة عنايت »

هل مات نابليون مسموماً؟



للعالم السويدى المحقق

ستين فورشوفود

NAPOLEON a-t-il été Empoisonné ?

Par: STEN FORSHUFOUD

تلخيص وتعليق : حلمى مراد

هذا الكتاب الخطير

◉ على أثر وفاة ((نابليون)) – فى يوم ٥ مايو عام ١٨٢١ – راجت موجة من الشائعات فى سائر بلاد العالم ، تجزم بأن الامبراطور لم يمت ميتة طبيعية ! غير أن تلك الشائعات لم تستمر طويلا ، اذ سرعان ما خمدت وتوقف ترددها ، على اثر اذاعة مضمون محضر تشريح جثة نابليون ، الذى قرر فيه موقعوه – وهم خمسة من كبار الأطباء الانجليز – أن الامبراطور مات نتيجة لاصابته بسرطان فى المعدة ..

ومنذ ذلك الحين ، تداولت الأجيال المتعاقبة هذا الرأى الاخير ، وتناقلته كتب التاريخ ، ومئات السير التى ألفت عن حياة المحارب الجبار الذى دوخ أوربا أكثر من خمسة عشر عاما ، حتى تألبت عليه الدول ووضعته فى ((القفص)) فى جزيرة (سانت هيلانة) ، حيث وافته منيته بعد ستة أعوام عاشها فى الأسر !

وقد ظل العالم مستقرا على هذا الرأى بصدد سبب وفاة نابليون .. حتى خرج الطبيب والمحقق السويدى ((ستين فورشوفود)) على العالم بنظرية جديدة مؤداها أن نابليون انما مات نتيجة تسممه ((بالزرنيخ)) تسمما بطيئا ! وقد دلل على نظريته هذه فى كتاب مطول من ٢٦٠

صفحة كبيرة جعل عنوانه « هل مات نابليون مسموما ؟ - تحقيق قضائى » وهو الكتاب الذى نلخص لك فى الصفحات التالية فصوله السبعة والعشرين ، الحافلة بالمفاجآت ، لمناسبة احتفال العالم هذا العام بذكرى مرور مائتى سنة على مولد نابليون ، فى ١٥ أغسطس عام ١٧٦٩ .

هل مات نابليون مقتولا ؟

.. ومن القاتل ؟

○ **والكتاب** يجيب فى صفحاته المائتين والستين على كثير من الأسئلة الهامة التى تتعلق بنهاية نابليون ، والتى من بينها :

١ - هل مات نابليون ميتة طبيعية ، أم مات مقتولا ؟

٢ - واذا كان قد مات ميتة طبيعية ، فهل كانت وفاته نتيجة لاصابته بالسرطان ، أم بقرحة فى المعدة ، أم بداء « الكبد » الذى ضاعف من تأثيره مناخ الجزيرة الحار « القاتل » ؟

٣ - أما اذا كان قد مات مقتولا ، فبأى سلاح قتل ؟ بالسم ؟ أم بوخز الأبر ؟ وما المقصود بوخز الأبر ؟

٤ - ومن الذى قتله ؟ من المحرض على قتله ؟ ومن المنفذ للجريمة ؟ هل قتله حاكم الجزيرة ، بتحريض من الحكومة الانجليزية ؟ أم قتله أحد أطبائه ؟ أم أن القاتل شخص ثالث ، والمحرض جهة ثالثة ، لم يخطرا على بال أحد من قبل ؟

كل هذه الأسئلة ، وعشرات غيرها ، يجيب عنها الطبيب المحقق السويدى « ستين فورشوفود » فى كتابه هذا الذى نشرته دار النشر الباريسية الكبرى (بلون) ، وكتب مقدمته

البروفيسور ((هنرى جريفون)) ، وعلق عليه المؤرخ والباحث المعروف هنرى لاشوك .. وقد بلغ من دقة الدكتور فورشوفود فى التمحيص والتحقيق ، أنه حلل خصلة من شعر نابليون حصل عليها من أحد ورثة ((لويس مارشان)) خادم الامبراطور الخاص ، (كما هو ثابت من الوثيقة الزنكوغرافية المنشورة فى صفحة ١٠ من هذا المقال) .

ولنبدأ التحقيق من بدايته :

يدين الانجليز .. فى وصيته الأخيرة !

◉ **قبيل** وفاة نابليون بثلاثة أسابيع ، وقع الامبراطور — فى ١٥ أبريل عام ١٨٢١ — وصيته الأخيرة التى تضمنت (فى بندها الخامس) هذه العبارة الصريحة : **((اننى أموت قبل الأوان مقتولا بأيدى الحكام الانجليز ، وعميلهم الأثيم .. ولست أشك فى أن الشعب الانجليزى سوف يأخذ يوما بثأرى !))** وعلى هذا النحو أعلن نابليون — وهو على فراش الموت ، وعلى ملأ من الرأى العام العالمى ، وأمام محكمة التاريخ — انه مات مقتولا بتدبير من الساسة الانجليز !

.. لكن هذه الصرخة لم يقدر لها أن تحظى آنذاك بأى التفات أو اهتمام ، بعد أن أجمع خمسة من الأطباء الانجليز — فى تقريرهم الرسمى — على أن الامبراطور انما مات ميتة طبيعية ، نتيجة لاصابته بسرطان فى المعدة . وهكذا حفظت القضية رسميا بالنسبة للرأى العام العالمى !

ولكن ، الى أى حد يمكن الاعتماد على شهادة أولئك الأطباء ؟.. والى أى حد يمكن الاعتماد — من الناحية المضادة — على ما قرره نابليون نفسه فى وصيته ؟

لنبدأ بتحقيق ((حكاية)) وفاته بالسرطان ، قبل أن نبحث عما تضمنته وصية نابليون بشأن مسئولية الانجليز عن ((قتله)) !

وهنا يقرر المؤلف ، انه مع تقدم العلوم الطبية واتساع نطاق تجاربها ، أخذت تقارير الأطباء الانجليز الخمسة بشأن وفاته بالسرطان تفقد جديتها وأهميتها .. ويستند المؤلف فى تفنيد تلك التقارير الى الحجج الآتية :

١ ـ **قام** الجراح الفنلندى الكبير « كاليما » بدراسة مستفيضة لمحضر تشريح جثة نابليون ، فاذا هو يكشف النقاب عن اخطاء خطيرة تضمنتها شهادة وفاة الامبراطور ، وقد انتهى من دراسته الى الجزم بأن نابليون لم يصب بالسرطان على الاطلاق ، وبالتالى لم يمت به !

٢ ـ **والدليل الثانى** الذى يؤيد هذا الرأى أن نابليون لم يشك قط ـ قبل شهر مارس عام ١٨٢١ ـ من آلام فى معدته .. ولا اصابته أية نوبة من القىء ، قبل يوم ٢٢ مارس من ذلك العام ..

٣ ـ **فضلا عن** أن نابليون لم يصب فى الشهور الأخيرة من حياته بالهزال والنحافة ـ وهما العلامة الأولى التى تصاحب مرض السرطان ـ وانما ظل حتى ساعاته الأخيرة محتفظا ببدانته وامتلاء جسمه ..

٤ ـ **بل ان** نفس تقرير تشريح جثة نابليون الذى كتبه الطبيب الشرعى الفرنسى « دكتور انتو مارشى » أثبت « خلو جسم الامبراطور من أية أورام أو خلايا سرطانية » ، وان قرر وجود تضخم ظاهر فى الكبد (وفيما بعد سوف نناقش رواية وفاة نابليون بداء الكبد نتيجة لطقس الجزيرة الحار) . ومما هو جدير بالذكر أن الطبيب الشرعى المذكور كان قد أشرف على علاج نابليون خلال العشرين شهرا الأخيرة من حياته ، وانه قد أجرى تشريح الجثة بحضور أفراد حاشية الامبراطور ، والأطباء الانجليز الخمسة ، ولفيف من مندوبى حاكم جزيرة (سانت هيلانة) ، وقد دب الخلاف بين الطبيب الشرعى والأطباء الخمسة حول الاصابة بالسرطان ، فلما أصر



Paris, 24 juillet 1960.

4. RUE DE L'ABREUVOIR XVIII°

MONTMARTRE 35 37

Je certifie que les cheveux de l'Empereur Napoléon Ier, remis par moi à

Monsieur le Docteur Sten FORSHUFVUD

Vasagatan 33

Suède Göteborg

ont été prélevés dans un paquet provenant de la succession de Louis MARCHAND, valet de chambre de l'Empereur à Sainte Hélène, dont j'ai publié les Mémoires.

شهادة من المؤرخ والباحث ((هنرى لاشوك)) يقرر فيها أن خصلة شعر نابليون التى سلمها الى المحقق السويدى مؤلف الكتاب لتحليلها ، كانت محفوظة ضمن مخلفات خادم نابليون الخاص فى (سانت هيلانة) المدعو ((لويس مارشان))

كل من الفريقين على رأيه ، لم يتيسر توقيع الجميع على تقرير طبى مشترك ، فكان أن انفرد الطبيب الشرعى الفرنسى بكتابة تقرير مستقل نفى فيه وجود الأورام السرطانية ، بينما كتب الأطباء الانجليز الخمسة تقريرا آخر قرروا فيه أن الامبراطور مات بالسرطان !

٥ ـ **وهناك** احتمالان فى هذا الصدد : أحدهما أن الأطباء الخمسة قد تعمدوا ـ بتقريرهم المذكور ـ تغطية « جريمة قتل » .. والاحتمال الثانى أن رأيهم كان محض « خطأ فى التشخيص » ، تأثروا فيه (ان كان الخطأ صادرا عن « حسن نية ») ، أو تعللوا فى شأنه (ان كان قصدهم منه اخفاء جريمة) بحقيقة معروفة ، هى أن والد نابليون كان قد مات بالسرطان ، وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره ، بحيث كان من الميسور والمعقول الزعم بأن الامبراطور قد ورث الاستعداد للمرض عن أبيه !

٦ ـ **وثمة** دليل آخر ينفى تشخيص السرطان ، هو العثور عند تشريح الجثة على طبقات سميكة من الشحم ، تحت الجلد وفى البطن ، الأمر الذى لا يحدث عادة عند المصابين بالمرض الخبيث !

لم يمت بداء الكبد ، ولا بقرحة فى المعدة !

● **فاذا** خلصنا من هذه الأسانيد الى نفى زعم وفاة نابليون بالسرطان ، فقد آن أن نناقش احتمالين آخرين : أحدهما انه مات بداء الكبد ، والآخر انه مات نتيجة قرحة فى المعدة :

أما الاحتمال الأول ، فمردود بأن التضخم الذى وجده الطبيب الشرعى فى كبد نابليون لم يكن من الخطورة بحيث يمكن أن يؤدى الى الوفاة بأية حال .. كما أن الطبيب الفنلندى الدكتور « كاليما » ـ الذى استبعد بدوره فكرة

السرطان – قرر أن الامبراطور لم تظهر عليه قط أعراض التهاب الكبد (مرض الصفراء) ، وان اصفرار وجهه فى معظم الأحيان لم تكن له صلة « بالكبد » . كما أن وفاة الكثيرين من الانجليز فى الجزيرة بداء الكبد لم يكن سببه مناخها الحار ، وانما كان سببه افراط أولئك الانجليز فى شرب الخمر – ربما بتأثير حرارة الجو – فى حين أن نابليون لم يكن يقرب الخمر الا فى القليل النادر !

وهناك قرينة أخرى تنفى أن الوفاة حدثت نتيجة لداء الكبد ، وهذه القرينة هى أن الدكتور « ستوكوى » – الذى بدأ يشترك فى معالجة نابليون فى يناير عام ١٨١٩ – شخص متاعب مريضه على أنها من مرض الكبد ، وعندئذ سأله نابليون : « كم يقدر لانسان مصاب بهذا المرض أن يظل على قيد الحياة ، فيما تظن ؟ » ، فأجابه الطبيب بأن الكثيرين من مرضى الكبد يعيشون الى سن متأخرة . واذ ذاك عاد الامبراطور يلح عليه فى السؤال عما اذا كان هذا الرأى يصدق حتى بالنسبة لمن يعيش فى ظل مناخ حار ، فأجابه الطبيب بالايجاب ..

وأما الاحتمال الثانى الذى ينجم عن استبعاد فكرة الموت بالسرطان – بعد احتمال داء الكبد – فهو احتمال أن تكون وفاة نابليون نتيجة لقرحة فى المعدة . وهذا الاحتمال لم يرد الا فى تقرير الجراح الفنلندى « كاليما » الذى جزم بأن الامبراطور لم يمت بالسرطان ، واستنتج انه مات بقرحة فى المعدة من النوع الذى يطلق عليه (Ulcus Simplex) ولكن هذا القول مردود بأن القرحة التى شكا منها انما كانت فى « الجدار المعدى » ، وهى حالة لا ينطبق عليها التشخيص السالف ، بل أنها – على العكس – مبرر يعزز مظنة أن يكون الامبراطور قد راح ضحية « جريمة قتل » ، كما سيجىء

البيان ، لأنها تصيب المعدة نتيجة جرعات متوالية من .. السم !

تهمة القتل بالسم .. تبرز الى السطح !

⊙ **والآن** ، بعد تفنيد المزاعم القائلة بأن وفاة نابليون كانت نتيجة لاصابته بالسرطان ، أو بداء الكبد ، أو بقرحة فى المعدة .. نعود الى ما قرره نابليون نفسه فى وصيته ، بشأن مسئولية الانجليز عن « قتله » .. نعود لنبحث مدى جدية هذا الاتهام ، والحجج التى تعززه ، أو تدحضه :

١ - **فلقد** قيل يومئذ - بلسان المعارضين لجدية هذا الاتهام - أن نابليون لم يكن محتفظا فى أواخر أيامه بذلك الذكاء الألمعى والبصيرة الثاقبة اللذين طالما اشتهر بهما وهو فى أوج مجده وعنفوان حيويته .. كما قيل ان الآلام التى قاسى منها فى سنواته الأخيرة قد أثرت تأثيرا بينا على حالته النفسية ، وان قدرته على الحكم على الأشياء قد تضعضعت من جراء ذلك تضعضعا شديدا . ومن ثم لا يمكن الاعتماد على هواجسه التى أوحت اليه بالقاء هذه التهمة على رؤوس الانجليز !

٢ - **غير أن** من يتعمق مع ذلك فى دراسة وصية نابليون وملحقاتها ، ونصوصها الاضافية ، يجد نفسه مضطرا الى الاعتراف بأن ما أوتيه الامبراطور يومئذ من قوة معنوية ورجاحة تفكير ، انما يفوق بمراحل ما يلمسه المرء منهما لدى سائر الأفراد العاديين ، رغم أن تلك الوصية قد كتبت قبل وفاة نابليون بثلاثة أسابيع فقط ! وليس أدل على رجاحة عقل الامبراطور واكتمال وعيه خلال تلك الأسابيع من أنه استطاع أن يتكهن بسلسلة من الأحداث والوقائع ، تحققت كلها على مر الأيام :

(أ) فقد تنبأ مثلا بأن أسرة « البوربون » ـ التى كانت تحكم فرنسا يومئذ ـ لن يقدر لها البقـاء فى الحكم أكثر من سنوات قلائل .. وأن أسرة « أورليان » هى التى ستخلفها ، وان يكن لفترة محدودة ..

(ب) كما تنبأ نابليون بقيـام الوحـدة الايطالية ، وكذلك الوحـدة الألمـانية ، كنتيجة طبيعية لحكمه .. أما بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية ـ وقـد كانت يومئذ جمهـورية صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها عشرة ملايين نسمة ! ـ فقد توقع لها نموا وازدهارا خارقين ، مؤكدا أن حـكم العـالم سيكون فى نهـاية المطاف موضع نزاع وتسابق بين روسـيا والولايات المتحـدة (كذا !) .. ثم نوه بالتوسـع الروسى الكبير ، فذكر أن شيئا أشبه بالستار الحديدى سيفصل بين دول أوربا المختلفة ، وان هذا الحد الفاصل لن يقـوم وفقا للحدود المرسومة بين البلاد ، وانما طبقا لتكتلات أيديولوجية معينة !

(ج) وتنبأ نابليون أيضا بأن المستعمرات البريطانيـة لن تلبث أن تستقل الواحـدة تلو الأخرى ، وأنهـا ستفلت من قبضة بريطانيا .. على مر الأيام !

يرتاب فى نوايا الانجليز !

◉ **واذن** فقد كانت ملكات نابليون الذهنية فى وعيها التام حتى أيامه الأخيرة ، وبالتالى كان ما ساقه فى وصيته من أنه يموت « مقتولا » ، خليقا بكل اعتبار واهتمام .. بل انه كان قد كرر على مسامع طبيبه « أوميارا » وياوره « لاس كازس » أنه قد استشف نوايا الانجليز ، وبخاصة حاكم الجزيرة ، بشأن تعذيبه والقضاء عليه بكل الطرق !

.. وكانت المرحـلة الأولى من مراحـل تلك الخطـة « للقضـاء » على نابليون ، محاولة حاكم الجزيرة ـ بكافة

السبل ـ أن يفرض على « الامبراطور » حياة العزلة .. وقد بدأها الحاكم بأن حظر عليه الاتصال بأى فرد من أهالى الجزيرة ، الا فى حضور أحد الضباط الانجليز ! .. بل ان « نابليون » ما كان ليستطيع الابتعاد عن حى (لونجوود) الذى كان يقيم فيه ، الا وهو مصحوب بضابط انجليزى .. **ولم يكن مصرحا لأى مخلوق بزيارته فى داره الا اذا حصل من الحاكم على تصريح سابق !..** وحتى اذا استوجبت الظروف أن يعوده أحد الأطباء الانجليز ، فان الحاكم كان يأمر دائما بألا يدور الحديث بينهما الا حول صحة الامبراطور ، فلا يتطرق الى أى موضوع آخر !

من تلك القيود الصارمة ، بدأ الامبراطور يدرك أن الانجليز كانوا يدبرون خطة للقضاء عليه .. لكنه كان يعلم ـ فى الوقت نفسه ـ انهم لن يجرأوا على أن يمسوه بسوء بطريقة سافرة مكشوفة ، خشية ثورة الرأى العام العالمى ، وأنهم سيعمدون ـ على الأرجح ـ الى الاجهاز عليه بطريقة خفية مستترة .. فكان خير تمهيد لذلك هو عزله ، وردمه بتراب النسيان !

بالسلاح .. أم بالسم ؟

● فى يوم ١٦ مايو عام ١٨١٦ ، جرت احدى المقابلات بين الامبراطور وحاكم الجزيرة « هدسون لو » ، قام الأخير خلالها بابلاغ الأسير الكبير بأن لديه تعليمات من حكومته أشد صرامة وقسوة من تعليمات الاميرال « كوكبورن » ـ (قائد السفينة الحربية الانجليزية التى أقلت نابليون الى جزيرة سانت هيلانه) ـ فقال له نابليون : « انك تقول ، يا سيدى ، أن لديك تعليمات أشد هولا من تعليمات الأميرال . ترى أهى تقضى اذن بقتلى بالسلاح ، أم بالسم ؟ أنا لا استبعد شيئا من جانب وزرائكم ، وها أنذا بين يديك ، فلتجهز على ضحيتك ! »

ويقول ((مارشان)) ، كبير خدم الامبراطور ــ فى مذكراته ــ ان حاكم (سانت هيلانة) صرح للدكتور ((أوميارا)) ــ طبيب نابليون ــ بقوله : ((اننى لا أريد له أن يموت بالسكتة القلبية ، ففى ذلك حرج بالغ لى ولحكومتى على السواء .. **وأحسب انه من الأفضل أن يموت نتيجة مرض بطىء .. حتى اذا قضى ، اعتبر أطباؤنا موته ميتة طبيعية . أما السكتة القلبية ، فهى خليقة بأن تثير العديد من التقولات ..!**

وما أن أبلغ ((أوميارا)) هذا الكلام الى الامبراطور ، حتى هتف هذا فى حدة : ((فى هذه الحالة ، يتضح بجلاء انه اذا كانت التعليمات التى تلقاها الحاكم لا تتضمن أمرا ((كتابيا)) بقتلى ، فان هناك أمرا ((شفويا)) قد صدر له بهذا المعنى !))

وفى يوم ٢٢ ابريل عام ١٨٢١ ، تحدث نابليون الى كبير الياوران ، ((**الكونت برتران**)) فقال ان الانجليز قد سعوا الى قتله فى أول الامر مستعينين بجو الجزيرة الضار بصحته ، ثم ((بوخزات الابر)) بعد ذلك ، واخيرا بمنعه من الخروج والتريض ! .. وكان الامبراطور يعنى ((بوخز الابر)) تلك الاهانات المتلاحقة التى كان لا يفتأ يتعرض لها كل يوم ، مما كان يفت فى عضده ، وينال من روحه المعنوية .. **والأدهى والأمر من ذلك أن السلطات كانت تضايقه فى رحلاته ونزهاته ، اذ كانت تبعث بحراسها وراءه فى كل مكان ، بحيث لم يكن فى مقدوره الاتيان بأية حركة دون أن يكون مراقبا** ، مما جعله يقلل من الخروج ويؤثر البقاء بالمنزل .. حتى اذا قرر الحاكم رفع الحراسة عنه فى النهاية ، كان قد غدا فى حال لا تسمح له بمغادرة البيت مطلقا !

وأفضى الامبراطور أيضا الى ((الكونت برتران)) بأن الحكومة الانجليزية ستتخذ ولا شك موقفا قويا للدفاع

عن نفسها ، عامدة الى نشر طائفة من الوثائق للتدليل على أنه لم يمت مقتولا . ومن ثم طلب الى « برتران » ورفاقه الآخرين الوقوف على أهبة الاستعداد للرد على الانجليز « ودحض مزاعمهم » عند الاقتضاء !

القهوة المسمومة !

◉ **ومنذ** سنوات النفى الأولى التى أمضاها نابليون فى (سانت هيلانة) ، بدأ يشك فى أن الانجليز يريدون قتله بالسم ، أو بأى سلاح آخر !.. ففى ذات يوم ، زاره حاكم الجزيرة فى داره ، (وقد قدر لتلك الزيارة أن تكون آخر زيارة له للامبراطور ، اذ لم يشأ نابليون أن يستقبله بعدها قط !) وأثناء الحديث ، أمر نابليون بقدحين من القهوة لضيفه الانجليزى ، ولنفسه .. وما أن انتهت الزيارة وانصرف « هدسون لو » حتى استدعى الامبراطور خادمه ، وقال له وهو يشير الى قدحه الذى كان مازال مملوءا بالقهوة : **« ألق بهذا القدح بعيدا ، فلست راغبا فى احتسائه .. لقد اقترب الرجل منه ، وأحسبه لا يتورع عن شىء ، ولا حتى عن قتلى بالسم ! »**

كان يتفجر صحة وقوة ..

◉ **ولقد** تضاربت الآراء وتباينت التشخيصات حول حقيقة المرض الذى لازم نابليون فى سانت هيلانة .. الا أن من يدرس ويحلل مرض الامبراطور ، فى مراحله المختلفة – من واقع مذكرات الشهود – سرعان ما يتبين ، بما لا يدع مجالا للشك ، **ان الأعراض المرضية التى ظهرت على أسير (سانت هيلانة) ، لم تكن سوى أعراض حالة تسمم بمادة الزرنيخ !**

ولطالما نعم نابليون – قبل سنوات الأسر – بصحة قوية ،

DEPARTMENT OF FORENSIC
MEDICINE

TEL. KELVIN 2231

THE UNIVERSITY,
GLASGOW, W.2

11/7/60

Dear Dr Forshufvud,

The sample lettered H.S. which you sent to me gave a value of 10.38 micrograms of arsenic per gram of hair when analysed by my activation method.

This value shows that the subject has been exposed to relatively large amounts of arsenic.

Hamilton Smith.

تقرير من ادارة الطب الشرعي بجامعة جلاسجو ، يثبت العثور على نسبة كبيرة من « الزرنيخ » في عينة من شعر نابليون أرسلها المؤلف الى الادارة لتحليلها ..

فلم يعان مرضا أو اعتلالا جسمانيا ، بل كان ذا حيوية دافقة ، وجلد خارق ، وقدرة على العمل لا تهدأ .. وحتى فى الأيام الأولى من حياته الجديدة فى (سانت هيلانة) ، كان ما زال محتفظا بروحه المعنوية العالية وقوته البدنية الحصينة ، **حتى لقد دهش هو نفسه اذ تبين ان الأحداث العصيبة التى مرت به فى السنوات الأخيرة لم تنل منه شيئا** .. ويقول « مارشان » فى مذكراته ، ان الامبراطور ـ رغم كل ما تعرض له من نكبات وشدائد ـ ظل دائما هادىء الطباع ، معتدل المزاج ، رقيق الحاشية ، مشاركا فى أفراح وأتراح جميع الملتفين حوله !

وقد زعمت الدعاية الانجليزية ، وافتراءات أسرة « البوربون » ، ان نابليون كان مصابا بداء الصرع ! .. والواقع ان هذا الزعم انما أوحت به بعض المآرب السياسية التى كانت ترمى الى الاطاحة بهيبة الامبراطور ، والتشهير به . واذا كان نابليون قد تعرض بالفعل فى بعض الأحيان لنوبات من التشنجات العصبية ، فمما لا شك فيه أن تلك الحالة لم تكن راجعة الى مرض الصرع ، وانما الى ما كان يعانيه من تسمم شديد يسرى فى بدنه !

ومما يؤكد هذا التشخيص أن نابليون كثيرا ما كانت تنتابه قشعريرة شديدة ، سرعان ما تسرى فى كيانه كله . فكان خادمه يلف له قدميه فى منشفتين ساخنتين ، ويغطى جسمه باللفائف الدافئة .. وكان يحلو له دائما أن يجلس الساعات الطوال أمام نار المدفأة ، وقد تدثر بأغطية ثقيلة للتغلب على برودة الجو ، حتى لقد كان الانجليز يدهشون لكمية الخشب الضخمة التى يستهلكها الفرنسيون فى التدفئة ، فكان أن انزعج الحاكم لتناقص عدد الأشجار فى الجزيرة ،

فاذا هو يطلب الى الفرنسيين الكف عن اســتخدام الخشب والاستعاضة عنه بالفحم !

كيف بدأت أعراض المرض

وقد كانت أول معلومات نشرت عن مرض نابليون فى سانت هيلانة ، هى التى ساقها اتباع الامبراطور فى مذكراتهم ، وعلى رأسهم « مارشان » و « لاس كازيس » ، كبير خدمه وسكرتيره ، اللذان أوردا أيضاحات كاملة حول أعراض المرض فى مختلف مراحله ، وان لم يفطنا الى طبيعة المرض ذاته ..

ويجمع هـؤلاء الشـهود على أن المرحـلة الأولى لمرض الامبراطور بدأت يوم ٢٣ نوفمبر عام ١٨١٥ ، واستمرت حتى يوم ٢٦ نوفمبر ، وهو اليوم الذى بدا أن نابليون قد استرد فيه صحته . وقد ظل الامبراطور بعد ذلك على خير ما يرام لمـدة شـهر كامل ، حتى اذا حل يوم ٢٤ ديسمبر ، أحس بوعكة جديدة لازمته ثلاثة أيام .. ولم يكد يشفى منها حتى اعتلت صحته مرة ثالثة !

وأثناء تلك النوبات المتلاحقة ، كان نابليون يشعر بآلام شديدة فى ساقيه وركبتيه ، وصداع حاد مستمر ، وقشعريرة تهـز بدنه هزا .. وهى الأعراض الأوليـة لتسمم زرنيخى مزمن ! .. واستمرت هذه الأعراض تداهمه حتى شهر مايو من عام ١٨١٦ ، حين قرر الامبـراطور ـ لأول مرة ـ أن يستشير الدكتور « أوميارا » فى أمر انحرافاته الصحية . فلم يكد يدلف الى حجرته ، فى يوم ٥ مايو ، حتى سـأله نابليون عما اذا كان يعتبر نفسه طبيب الامبراطور ، أو موظفا انجليزيا كلفه حاكم الجزيرة بالتجسس عليه ؟ .. وبعد أن أكد له « أوميارا » بأنه قد جاءه بوصفه طبيبا ، وانه لن يوافى الحاكم بأية نشرة عن حالته الصحية الا بتصريح منه ، وافق الامبراطور على قبوله طبيبا رسميا له !

تخبط فى تقارير الأطباء

● **على أن** أطباء « نابليون » الثلاثة فى سانت هيلانة ، وهم **« أوميارا »** ، و **« ستوكوى »** ، و **« انتومارشى »** لم يلبثوا أن أعلنوا بصورة قاطعة أن مرض الامبرطور يرجع الى الأحوال المناخية ، وانه اذا لم يغـادر الجزيرة فانه هالك لا محالة قبل مرور فترة طويلة ..

واستمرت صحة نابليون تتقلب بين التحسن والانتكاس .. فى الوقت الذى كانت فيه أعراض التسمم التى ألمت به تزداد حدة ووضوحا .. حتى كان يوم ٢٥ يوليو عام ١٨١٨ ، حين تقرر اعفـاء « أوميارا » من مهمته كمشرف على علاج الامبراطور . وكان ثمة خلاف قد دب بين الاثنين ، على اثر ما ترامى الى علم نابليون من أن طبيبه دأب على وضع التقارير والنشرات عن أحواله الصحية ـ دون علمـه وموافقته ـ وارسالها الى حاكم الجزيرة !.. حتى لقـد استدعاه ذات ليلة ، وقال له : « لا تنظر الى ساقى ، فليس عندى ما أقوله لك عن حالتى الصحية .. **اننى لا أريد أن أدخل السرور على قلب الحاكم ، فأشبع ميوله العدائية نحوى ، حين يعلم بأمر كل ما سيتحتم على تحمله من آلام قبل أن يوافينى الأجل ..** وبوسعك أن تخبره بأننى لا أتشبث بالحياة الى حد يجعلنى أرتضى ـ طائعا مختارا ـ أن يكون طبيبى جاسوسا ! »

على أن اعفاء ذلك الطبيب من مهمته كان له سبب آخر فى واقع الأمر ، فان صحة نابليون كانت قد بلغت درجة من الخطورة لم يكن من الممكن معها لأوميارا أن يتحمل مسئوليتها وحده ، فلم يجد مفرا من ابلاغ كبار أطباء الجزيرة بأمرها ، وبالتالى ابلاغ الحاكم الذى كان ـ برغم كل شىء ـ المسئول الأول والأخير عن صحة الامبراطور ، سيما وان الطبيب ما كان ليشك فى أن الحاكم تراوده أية نوايا اجرامية تجاه الأسـير الكبير !

وفى الليلة التى أعقبت رحيل « أوميارا » ، انتابت نابليون حمى شديدة استمرت تلهب جسده حتى الفجر ، حيث استطاع أخيرا أن يصيب قسطا من النوم . الا أنه فى اليوم التالى ، أحس فجأة بألم شديد مصحوب بنوبة قىء حادة ، كانت أول نوبة خطيرة تصيبه فى (سانت هيلانة) .. ومع أن أعراض المرض ظلت بعد ذلك تلازم الامبراطور ، الا أن مرضه لم يستفحل أكثر من ذى قبل ، بل لقد طرأ عليه التحسن والتقدم شيئا فشيئا .. حتى أن « مارشان » أورد فى مذكراته أن الاعتقاد ساوره ، خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٨١٨ ، بأن سيده لن يلبث أن يشفى من مرضه تماما ، اذ كان قد عاد الى استئناف تمريناته الرياضية ، والى مزاولة نشاطه اليومى المألوف ..

الجانى يعمل .. وفقا لخطة مرسومة !

● **وقد** حاول الحاكم جهده أن يقنع نابليون بقبول الطبيب الذى عينه لمباشرة علاجه ــ خلفا لأوميارا ــ الا أن الامبراطور ما كان ليأمن لأى طبيب موفد من قبل « هدسون لو » ، ايمانا منه بأن هذا الأخير ليس له من غاية سوى القضاء على حياته !.. ومن ثم فقد ظل نابليون بغير طبيب لفترة من الزمن ، **ومن العجيب أن حالته الصحية تحسنت فى تلك الأثناء بشكل ملحوظ !..** ورغم أن النوبات استمرت تهاجمه بين الحين والآخر ، الا أنها كانت طفيفة عابرة ، لا تستمر أكثر من يوم أو يومين ، ولا تعاوده الا بمعدل مرة واحدة كل شهر ..

ويبدو أن القاتل الذى كان يسعى للاجهاز على الامبراطور ، كان يعمل وفقا لخطة مرسومة ، تنفيذا لتعليمات محكمة كانت تصدر اليه بانتظام ! فقد عادت اليد الخفية ــ التى كانت قد أمسكت عن نشاطها لفترة من الوقت ــ

فضاعفت ، على حين غرة ، من جرعات الزرنيخ التى كانت تدسها للامبراطور ، فاذا به يغدو فريسة لأزمات حادة متواصلة .. حتى لقد ظن كل من حوله أن نهايته قد حانت ، وان أيامه باتت معدودة !

وفى يوم ١٠ يناير عام ١٨١٩ ، سمح الامبراطور - أخيرا - لكبير الياوران بالذهاب لمقابلة الحاكم ، ليطالبه بتعيين طبيب جديد يباشر علاجه .. وان هى الا أيام ، حتى أقبل الدكتور « ستوكوى » ، الذى ألفى نفسه مضطرا - قبل أن يصرح له بفحص المريض - الى توقيع اقرار ، تعهد فيه بأن يكون طبيب الامبراطور الخاص ، فيوقف خدماته عليه ، على أن يقطع صلته بالحاكم !.. فلما قبل هذه الشروط ، اقتيد الى حجرة الامبراطور ، فوجده مضطجعا على احدى الأرائك وقد ظهرت عليه آثار الاعياء ، وكسا وجهه الشحوب .

.. وبعد أن فحصه وسأله عما يشكو منه ، تبين له من أعراض المرض أن نابليون كان مصابا بداء الكبد .. فلما أتم فحصه وغادر بيت الامبراطور ، كتب تقريرا ذكر فيه أن المريض كان فى حالة هزال متناهية ، وانه كان يعانى آلاما فى الكبد ، مصحوبة بصداع ودوار شديدين .. على أن الحاكم ما كاد يعلم بمضمون التقرير ، حتى استدعى « ستوكوى » وأمره بالعدول عن قبول مهمته الجديدة ، وبعدم مقابلة نابليون مرة أخرى ! .. وكان سبب ذلك الأمر المفاجىء واضحا ، فقد قرر الحاكم ابعاده حتى لا يفسد عليه خطته ويعطل مشروعاته التى كانت تهدف الى القضاء على نابليون ! ويبدو أن ستوكوى قد فطن الى هذه الحقيقة ، فطلب احالته الى التقاعد ، وغادر سانت هيلانة عائدا الى أوربا !

بداية النهاية !

● **وفى** يوم ١٨ سبتمبر عام ١٨٢٠ ، دخل مرض

الامبراطور مرحلة جديدة طويلة ، استمرت نحو خمسة أشهر ، حتى أواخر شهر فبراير عام ١٨٢١ . وبعد هذه المرحلة ، طرأ تحسن عابر على صحة نابليون ، **حتى اذا حل يوم ١٧ مارس ، عاد الى ملازمة الفراش ، ولم يقدر له أن يبارحه بعد ذلك قط !**

ويقول « مارشان » فى وصف هذه الحقبة من حياة نابليون ، أن سيده صار يجد مشقة كبيرة فى القيام بنزهاته اليومية ، سواء بالعربة أو سيرا على الأقدام . وانه كان يعود منها دائما وقد استبد به التعب والاعياء .. **وكان يشعر ببرودة شديدة فى قدميه ، فلا يستطيع تدفئتهما الا بدسهما بين اللفافات الساخنة ، التى كان يؤثرها على سائر وسائل التدفئة الأخرى ..**

واستطرد « مارشان » يروى فى مذكراته كيف أن نابليون حاول ذات يوم أن يستنشق الهواء بالتريض فى الحديقة أو القيام بنزهة قصيرة بالعربة . لكنه ما ان وصل الى العربة حتى انتابه الدوار ، فاذا به يهوى الى الأرض فجأة ، فهرع الخدم اليه وعاونوه على النهوض ، ثم أعادوه الى فراشه . ولما استرد الامبراطور أنفاسه ، نظر الى مارشان ، وكان يقف بجواره ، وقال له : **« انك تردنى الى الحياة .. وأحسب أن هناك أزمة فى الطريق ، اما أن تنقذنى .. أو تقضى على ! »**

ومنذ ذلك الحين ، بدأ مرض نابليون يتخذ صورة جديدة : فقبل ذلك ، لم تكن آلام المعدة واضطراباتها هى أبرز ما يعانى منه ، فاذا بها تصير ــ فجأة ــ ظاهرة تلح على نابليون ، ولا تكاد تفارقه !.. **ويبدو أن الجناة كانوا قد رأوا اذ ذاك أن الوقت قد حان كى يدخل الامبراطور المرحلة الأخيرة من حياته !** .. فقد راح يتقيأ بشكل عنيف متلاحق ، على نحو يدل على زيادة ضخمة فى مقدار السم الذى كان لا ينفك يجرعه منذ أمد طويل ، على غير علم منه !

الشك يحوم حول « ياور » الامبراطور !

● **وبعد** سفر الدكتور « ستوكوى » ، كان لا بد من تعيين طبيب آخر ليخلفه فى مهمته .. وحين وقع الاختيار على طبيب الحامية الانجليزية الدكتور « ارنوت » ، استشاط « نابليون » غضبا ، ورفض ــ كعادته ــ قبول أى طبيب موفد من قبل حاكم الجزيرة !.. ومضى الجنرال « مونتولون » ــ ياور الامبراطور ــ يحاول اثناءه عن عزمه ، لكن جهوده باءت بالفشل ، فطلب الى كبير الخدم « مارشان » ، فى ليلة ٣١ مارس ، فيما لو سأله الامبراطور النصح بشأن رأيه فى تعيين الطبيب الانجليزى ، أن يؤيد هـذا الاجراء بكل قواه ، « والا لما توانى الحاكم عن اقتحام غرفة الامبراطور حتى يستوثق من وجوده ! »

على أن ثمة أدلة عدة تؤكد أن « هدسون لو » كان على علم تماما بأن نابليون طريح الفراش ، وان حالته الصحية سيئة للغاية ، مما جعله لا يفكر مطلقا فى اقتحام غرفة المريض الكبير . **ومن هنا يتضح أن « منتولون » لم يكن صادقا فيما ساقه من مزاعم أمام كبير الخدم ، فما السر فى موقفه هذا ؟.. وأى شىء دفعه الى سلوك ذلك السبيل الملتوى ؟**

ان لرواية الجنرال « منتولون » ، ياور الامبراطور فى (سانت هيلانة) ، أهمية بالغة فى هذا الصدد ، اذ هى تساعد على القاء ضوء كبير على حقيقة المأساة التى اكتنفت ساعات « نابليون » الأخيرة :

من ذلك أن « منتولون » يقول فى مذكراته ان تشخيص الدكتور « ارنوت » لمرض الامبراطور تضمن أن المرض كان بالغ الخطورة ، وان المريض كان يشكو من احتقان حاد حول بطنه .. فى حين أن الحقيقة كانت مغايرة لذلك ، اذ يؤخذ من مذكرات سائر الشهود الآخرين أن « أرنوت » لم يعتقد مطلقا أن « نابليون » كان فى حالة خطيرة !!

ويزعم الجنرال كذلك أنه فى يوم ١٠ ابريل عام ١٨٢١ ، فاتحه نابليون ـ لأول مرة ـ فى أمر وصيته ، وضرورة الانتهاء من كتابتها على وجه السرعة .. فلما حاول الياور اقناع الامبراطور بأن ليس ثمة ما يدعو الى هذا الذى يفكر فيه ، وانه سابق لأوانه ، أجابه نابليون فى اصرار : ((**بل سأكتب وصيتى غدا ، اذا استمرت حالتى فى التحسن** .)) .. والذى حدث فى حقيقة الأمر ـ طبقا لما رواه شهود سانت هيلانة الآخرون ـ أنه فى يوم ٣ أبريل ، **كان ((منتولون)) نفسه هو الذى فاتح نابليون فى أن أيامه قد أصبحت معدودة ، وان الوقت قد حان لكى ((يرتب أموره)) !**

.. حتى اذا حل يوم ١٤ ابريل ، استدعى الامبراطور ياوره وقال له : ((سأملى عليك اليوم رغباتى الأخيرة ، فلتعد الى عند الظهر)) .. وعندما أقبل ((منتولون)) فى الموعد المحدد ، **طلب اليه الامبراطور أن يغلق باب الغرفة ، ثم أملى عليه وصيته لمدة ساعتين كاملتين دون توقف** .. وأخيرا طلب اليه أن يقرأ ما كتب ، فلما فرغ الجنرال من القراءة ، سأله نابليـون : ((هل تريد أن أوصى لك بنصيب أكبر ؟)) .. فأجابه بالنفى !

ومما سجله ((منتولون)) فى مذكراته ، يتبين ـ فى جلاء ـ انه قد حرص على تبرير ما حدا بالامبراطور الى تمييزه فى وصيته على ((برتران)) كبير الياوران ، فاذا هو يؤكد أن هذا التمييز انما يرجع الى أن الامبراطور لم يكن ليرتاح الى ((الآراء الأرستقراطية)) التى كان يعتنقها ((برتران)) !

وقد حاول ((منتولون)) أن يثبت كذلك أنه ليس هو ـ كما أشيع ـ الذى سعى حتى جعل الامبراطور يحابيه فى وصيته ، بل ان نابليون هو الذى اتخذ هذا القرار من تلقاء نفسه ..

وايا كانت الأسباب ، فالمؤكد أن منتولون قد حرص على

تدبير الأمر ، بحيث لا يكون هناك أحد سواه بجوار نابليون ، فى ساعاته الأخيرة !.. وبذلك يصبح هو فى نظر الجميع الشاهد الوحيد الذى يعتد بشهادته بصدد الحدث الكبير .. لذلك ، يحق للمرء أن يتساءل : ترى ما الذى جعل « منتولون » يحرص كل هذا الحرص على ابعاد جميع أفراد حاشية الامبراطور عن حجرة المريض المحتضر ، فى أيامه الأخيرة ؟ !

نهاية الآلام !

● **وأخيرا** ، قدر الآلام الامبراطور أن تصل الى نهايتها .. ففى يوم ٤ مايو عام ١٨٢١ ، استيقظ نابليون من نومه وقد أحس بظمأ شديد يلهب حلقه .. فلم يكد يتناول قليلا من الماء والنبيذ حتى لفظ كل ما شرب ، وانتابته شهقة حادة متواصلة . ثم لبث ساكنا بلا حراك ، لكنه سرعان ما أخذ يهذى ، ويتفوه بكلام متقطع ، وألفاظ غير مفهومة .. وفى فجر اليوم التالى ، كان مستلقيا فى فراشه ، وقد راح فى غيبوبة تامة ، لا يأتى فيها بحركة تدل على أنه لا يزال على قيد الحياة .. باستثناء بعض تنهدات كانت تصدر عنه — بين الفينة والأخرى — فى ضعف ووهن ..

.. وفى الساعة الخامسة والدقيقة الخمسين من مساء ذلك اليوم — ٥ مايو عام ١٨٢١ — وفى اللحظة التى كان فيها المدفع يعلن غروب الشمس ، واحتلال الحراس لمراكزهم اليومية ، لمنع الامبراطور من الفرار ، كان « نابليون بونابرت » يلفظ آخر أنفاسه !

ومن تشريح جثة نابليون ، برزت فى جلاء حقيقة هامة ، على نحو لا يدع مجالا لأى شك ، هى أن الامبراطور كان قد أصيب بالفعل بنزيف خطير فى المعدة .. فلقد أثبت التشريح أن المعدة كانت تحوى كمية كبيرة من مادة أشبه بحثالة حبات البن . **ولم يكن هذا النزيف المعدى ناجما عن أية اصابة**

سرطانية ، ولا عن أية قرحة عادية فى المعدة ، وانما جاء نتيجة تآكل كامل فى الجدار المعدى ، وهى ظاهرة لا يحدثها الا تسمم زئبقى خطير !

.. واذن فالسبب المباشر الذى أفضى الى وفاة نابليون كان هو التسمم بمادة الزئبق .. ومع أن الجثة كانت تحوى آثارا واضحة لتسمم مزمن بالزرنيخ ، الا أن هذه الآثار لم تكن من الاستفحال بحيث تؤدى الى موت سريع .. وكان واضحا ــ بالاضافة اليها ــ وجود حالة تسمم حادة جديدة بالزئبق !

يرفضون ارسال قلبه الى زوجته !

● **وقد** منع الحاكم الانجليزى تحنيط الجثة ، رغم أن الامبراطور كان قد أوصى بتحنيط قلبه وارساله الى زوجته « مارى لويز » . وعندما أراد « أنتومارشى » الاحتفاظ بمعدة نابليون كى يحملها معه الى أوروبا لاجراء أبحاث عليها بالاشتراك مع زملائه ، رفض طلبه ، ولم يصدر الرفض هذه المرة من الحاكم ، بل صدر من « برتران » و « منتولون » ، رفيقى نابليون وتابعيه !

ثم أصدر الحاكم أوامره للأطباء الانجليز بعدم السماح بانتزاع أى شىء من الجثمان .. فوضعت المعدة والقلب فى اناءين فضيين مملوءين بالكحول ، ثم لحم الاناءان باحكام ووضعا فى التابوت .

وقد أودع جثمان نابليون تابوتا من الحديد الأبيض ، أغلق بابه باللحام ، ثم أدخل فى تابوت ثان من خشب المهوجانى ، وضع بدوره فى داخل تابوت ثالث من الرصاص . وكان الغلاف الخارجى تابوتا رابعا من خشب المهوجانى ، ثبت غطاؤه بمسامير فضية .. ولم يقرر الانجليز تخفيف الحراسة على الجثة الا بعد أن تم لحام التابوت الرصاصى !

واختير للمقبرة مكان يقع على مقربة من جدول مائى

رقراق ، كان يشرب منه الامبراطور المريض كل يوم . وقد أطلق على هذه البقعة ، منذ ذلك الحين ، اسم « **وادى زهرة الجيرانيوم** » .

وبعد تسعة عشر عاما من وفاة نابليون ، استخرج التابوت من المقبرة ، وأعيد فحص الجثة ، للوقوف على ما عساه يكون قد طرأ عليها من تغييرات . **وكم كانت دهشة الطبيب الذى أشرف على العملية ، حين تبين أن الجثة كانت سليمة تماما ، ولم تتعرض لأى تحلل أو عفن ، بالرغم من كل ما تضمنه محضر تشريح الجثة ، عقب الوفاة .** على أن الطبيب ما لبث أن عزا هذه الظاهرة الى نوع المقبرة واحكام التوابيت ، التى استطاعت أن تصون الجثمان وتحافظ عليه ردحا طويلا !

والواقع أن هناك تفسيرا علميا هاما ، يعلل الصورة السليمة التى وجدت عليها رفات نابليون ، رغم عدم صونها بالتحنيط .. **ذلك أنه من المعروف طبيا أن جثث الأشخاص الذين يلقون حتفهم نتيجة تسممهم بالزرنيخ ، تبقى على حالتها وتحتفظ بكيانها طويلا ، بشكل يدعو الى الدهشة والاستغراب !**

لم تكن للانجليز مصلحة فى اغتياله !

● **وهكذا** يبدو جليا اليوم ، بصورة قاطعة ، أن « نابليون بونابرت » قد مات مسموما ، وان تهمة الاغتيال التى كان هو قد جهر بها أمام التاريخ ، تستند الى أسس من الحقيقة والواقع .. بحيث يمكن الجزم بأنه انما قتل قتلا بطيئا ، محكما ، مع سبق الاصرار ! .. **ولكن المهم فى الأمر هو تبين ما اذا كان الانجليز هم الذين قتلوه ، أم سواهم !**

لو احتكمنا الى المنطق ، فانه لايبدو أن الحكومة الانجليزية كان من مصلحتها فى شىء القضاء على نابليون !.. ولعل

الحاكم « هدسون لو » قد أصاب كبد الحقيقة حين ذكر أن بقاء أسير (سانت هيلانة) فى قبضته انما كان يزود الحكومة الانجليزية بمفتاح يجعلها تتحكم فى توجيه التيارات السياسية الكبرى . **فقد كان نابليون بمثابة « رهينة ثمينة » ، بات فى مقدور الانجليز استغلالها ضد الدول الأخرى الأعضاء فى « الحلف المقدس » ، وخاصة ضد فرنسا !** وطالما كان الانجليز « واضعين أيديهم » على الامبراطور ، كان من الميسور عليهم التفاوض مع (باريس) واملاء شروطهم عليها ، ولا سيما فيما يتعلق بمسألة الرسوم الجمركية ..

الشعب الانجليزى يرى فيه بطلا صنديدا !

● **وثمة** سبب آخر يهدم - من الأساس - فكرة تدبير « الحكومة الانجليزية » لاغتيال نابليون : اذ ما ان أعلن نبأ نفى الامبراطور المعزول الى جزيرة (سانت هيلانة) ، حتى تحول الرأى العام الانجليزى عن موقفه السابق ، المعادى للزعيم الفرنسى ، الى موقف ينطوى على العطف عليه والتأييد له ، بل واعتباره بطلا مغوارا ، جديرا بالتمجيد والخلود !.. ولما علمت (لندن) بوفاة الامبراطور ، انتشرت اللاصقات فى كل مكان ، تدعو جميع المعجبين بالقائد الفرنسى الراحل الى ارتداء ملابس الحداد !.. بل لقد حدث ذات مرة ، أثناء سنوات الأسر ، أن عرض أحد الضباط الانجليز أن يمهد أمام نابليون سبيل الفرار !.. فلما أبدى أحد أتباع الامبراطور دهشته لهذا التصرف ، الذى عرضه الضابط بغير مقابل ، أجابه هذا بقوله : **« كيف تقول ان ذلك (بغير مقابل) يا سيدى ؟ !.. أتراك لم تحسب حسابا للشرف الذى سيعود على من جراء اقتران اسمى بانقاذ بونابرت ؟ »**

ومن ثم ، لم تكن « الحكومة » الانجليزية لتجسر - حتى ولو رغبت فى ذلك - على أن تمس الامبراطور بسوء ،

على الأقل بدافع الخشية من « رد الفعل » لدى الرأى العام الانجليزى ، الذى كان نابليون يتمتع بينه بشعبية حقيقية ، لا يسهل محوها ! .

دور أسرة « البوربون » !

على أن هذا الموقف من جانب الحكومة البريطانية ، كان يختلف على خط مستقيم مع موقف حكومة أسرة « البوربون » المالكة فى فرنسا ، فقد كان الوضع بالنسبة لهذه الأخيرة على هذا النحو : طالما كان نابليون على قيد الحياة ؛ كانت الملكية الفرنسية فى خطر دائم ، ومعرضة للانهيار فى أية لحظة !.. **حتى لقد كانت الحكومة الفرنسية تشعر بانزعاج بالغ ، خشية أن يتهاون الانجليز فى حراستهم للامبراطور الأسير !** ولعل هذا ما دفع وزير خارجية فرنسا فى ذلك الحين الى أن يقول للسفير الفرنسى فى لندن : « لو قدر لنابليون أن يهرب من جزيرة (سانت هيلانة) ، لكان هذا سببا فى اضطرابات لا حد لها فى وطننا التعس .. **وانه لمن المحزن حقا أن يبقى هذا الرجل بين أيدى شعب ، قد ينجم عن تغيير حكامه تدبير مؤامرات تفضى الى اعادة نابليون الى مسرح الأحداث العالمية مرة أخرى ! »** .

وكان لفرنسا مبعوث خاص فى (سانت هيلانة) يدعى « الماركيز دى مونشينو » ، وكان رجلا معروفا بعدائه الشديد لنابليون .. على أنه كان على درجة من الحماقة ، وضيق الأفق ، وضآلة التفكير ، يستبعد معها أن يكون قد قام بأى دور رئيسى فى مأساة سانت هيلانة .. ولعل شخصا آخر فى فرنسا كان يقف وراءه ليمسك بجميع الخيوط ، هو **« تاليران »** وزير خارجية نابليون السابق الذى انقلب عليه منذ عام ١٨٠٩ وأعد قرار مؤتمر (فيينا) القاضى بعزل نابليون عن الانسانية ، بل و « قتله » اذا استلزم الأمر !

على أن هناك واقعتين تبرئان ساحة « دى مونشينو » ، وتبعدان عنه تهمة الاشتراك فى وضع السم للامبراطور : أولاهما ، انه لم يكن فى وسع المبعوث الفرنسى الاقتراب من « نابليون » أو مقابلته ، على حين أن دس السم كان لابد أن يتولاه رجل يعيش على مقربة من الامبراطور بصفة دائمة . والواقعة الأخرى ، أن عملية التسميم كانت قد بدأت بالفعل قبل وصول « دى مونشينو » الى الجزيرة ، اذ أنه وفد الى سانت هيلانة بعد أربعة أشهر من ظهور أول أعراض التسمم على نابليون !

الشبهات تحاصر الجانى !

● وليس من شك فى أن قاتل نابليون كان يقيم فى سانت هيلانة منذ أواخر شهر نوفمبر عام ١٨١٥ ، ولابد أنه كان على اتصال بالامبراطور أثناء مراحل المرض المختلفة .. وكان فى مقدوره أن يكون موجودا فى غرفة نابليون ، فى الوقت الذى كان فيه الجميع بعيدين عنها !

ولم يكن فى سانت هيلانة سوى أربعة أشخاص تنطبق عليهم هذه الظروف ، وهم : الجنرال « منتولون » ، ياور الامبراطور ، و « مارشان » كبير الخدم ، و « نوفيراز » ، و « سان دينيس » الخادمان .. ومن هؤلاء الاربعة ، يجب استبعاد الثلاثة الاخيرين ، الذين كان حبهم وولاؤهم للامبراطور فوق الشبهات ، كما دلت القرائن والملابسات على استحالة ارتكابهم للجريمة .. فلم يبق سوى الجنرال الكونت « منتولون » ياور نابليون الذى تدينه الملابسات وتنحصر فيه الشبهات : ويبدو أنه اضطر الى التوقف عن دس السم للامبراطور حين تولت حكم فرنسا وزارة « ديكاز » الذى كان رجلا معتدلا سبق له العمل فى خدمة والدة نابليون وكان يكن لها تقديرا واعجابا بالغين .. وهكذا تحسنت صحة بونابرت ، حتى بدا كأنه شفى تماما ، خلال الفترة من أكتوبر ١٨١٩ الى أكتوبر ١٨٢٠ ، وهى المدة التى بقيت فيها وزارة « ديكاز » فى الحكم ! .. وكلها ملابسات توحى بمسئولية أسرة البوربون وحكومة فرنسا عن استخدام عميلها « منتولون » للقضاء على حياة غريمها نابليون !

ومن الملابسات الاخرى التى تزيد التهمة التصاقا بـ « منتولون » ان صحة نابليون تحسنت أيضا فى مناسبة أخرى : اذ لم يكد يعلن اعتزامه

تعديل وصيته الاولى التى كان قد ترك فيها أنصبة متساوية لأتباعه ، حتى طرأ تحسن واضح على صحتـــه ، استمر طوال الفترة التى قضاها نابليون ومنتولون فى اعداد الوصية الجديدة ، التى خرج منها منتولون بأكبر نصيب من ميراث الامبراطور !

وعندما فرغ نابليون من املاء وصيته وتوقيعهـــا ، التفت الى منتولون قائلا : « والآن يابنى ، أليس من المؤسف حقا ألا يموت المرء ، بعد أن دبر شئونه على هذه الصورة الرائعة ؟ » .. فلم يكد يحل مســاء ذلك اليــوم نفسه ، حتى أصيب الامبراطور بنوبة حادة خطيرة ، صارت تتفاقم يومـــا بعد يوم ، حتى لفظ أنفاسه الاخيرة بعد أسابيع !

ومما يزيد فى الصاق التهمة بالجنرال منتولون ، انه أوحى فى مذكراته بأن نابليون مات بالسرطان ، فقد زعم فيها ان الامبراطور بدأ يفقد بدانته بشكل ظاهر منذ أوائل فبراير ١٨٢١ ، وان معدته بدأت تنزف دما منذ ١٧ مارس من نفس العام .. فى حين أن هذه الاعراض لم تظهر عليه حقيقة الا فى أيامه الاخيرة ! .. كذلك زعم أن نابليون كان يقوم بنزهات طـويلة على صهوة جواده ، فى فترة كانت ساقا الامبراطور خلالها ـ بشـهادة الجميع ـ من الضعف والهزال بحيث لا تكادان تقويان على حمـله ، بسبب البـرودة القاسية التى كانت تسرى فيهما ، والتى هى من أعراض التسمم البطىء ! .. وقد أغفل الياور الاشارة الى هذه البرودة فى مذكراته ، رغم انه تحدث عنها الى حاكم الجزيرة « هدسون لو » ، معللا اياها بمرض فى القلب ! ..

وعندما نشر منتولون مذكراته فى عام ١٨٤٦ ، كان جميع شهود سانت هيلانة قد لاقوا ربهم ، باستثناء واحد فقط هو « مارشان » كبير الخدم ، فكتب الاخير فى مذكراته يقول ان ذاكرة منتولون قد « خانتـــه » فى عدد كبير من النقاط الهامة ، وانه وعده باصدار طبعة جـديدة منقحـــة من مذكراته ، بالتعاون معه .. لكن المنية عاجلت « منتولون » قبل أن يحقق وعده !!

على أن هذه القرائن كلها ليست أكثر من شـبهات ، لا تمكننـــا من « الجزم » بأن منتولون ـ بالتحديد ـ هو القاتل .. كما يتعـذر تحديد « المحرض » الذى سخر القاتل للقضاء على حيـاة نابليون .. وان أمكن القول بأن ساسة أوربا من أعضاء مؤتمر (فيينـــا) هم جميعا « محرضون أصليون » ، لانهم أصدروا قرارا بحرمان عدوهم اللدود من « حماية القانون » .. أما عن الشخص الذى استخدم فى « تنفيذ » الجريمة ، فلعل الايـــام تساعد على كشف النقاب عنه بصورة مؤكدة ، بفضل جهـــود المحققين ، وسعيهم الدائب للتأكد منه !

لعنة نابليون تلاحق ((المتهم البرىء)) !

● وأما حاكم (سانت هيلانة) الانجليزى ((هدسون لو)) ، الذى اتهمه نابليون فى كل مناسبة بالسعى الى ((قتله)) ، فتكاد جريمتـــه تنحصر فى ((الخشونة)) و ((سوء المعاملة)) ، والطريقة الخرقاء التى نفذ بها تعليمات حكومته ب ((حراســـة)) الاسير الخطير ! .. وقد عاقبه الشعب الانجليزى نفسه على سوء تصرفه ، فحفلت مذكراته بالأنين المتواصل ، والشكوى المرة ، من المعاملة السيئة التى لقيها فى انجلترا بعد عودته من (سانت هيلانة) .. فلقـد أراد المثول بين يدى الملك ((جـورج الرابـع)) ، لكن أمين القـصر استقبله فى خشونة بالغة ، وأبلغه أن الملك يرفض مقابلته .. وحدث بعد ذلك أن طلب الانضمام الى نادى الضباط ، الا أن طلبه رفض باجماع الاصوات . وكان فى كل مكان يمضى اليه ، يقابل بعاصفة من السباب والشتائم ،حتى لقد اطلق عليه الانجليز وصف ((القاتل)) ، مما حدا به فى النهاية الى مغـادرة انجلترا والرحيل الى (سيلان) !

.. لكنه لم يجد فى (سيلان) الاستقبال الذى كان يحلم به ، فســافر الى (بومباى) ، ثم غادرها الى جزيرة (موريس) ، فوصل الى هناك فى مايو ١٨٢٨ .. وذات يوم خطر له أن يذهب الى أحد المسارح ، فتلقى ((تحذيرا)) بأنه اذا نفذ ما اعتزمه ، فان جميع النظارة سيغادرون القاعة عائدين من حيث أتوا ! .. فلما أبحر أخيرا راجعا الى بلاده ، تبعته جموع حاشـدة راحت تصيح مزمجرة ، وهى تشير اليه : ((انظروا الى جلاد (سانت هيلانة) ! .. اشنقوا المجرم ! .. الى قاع البحر ، أيها الوغد !)) .. حتى لقد عمد ياوره الخاص الى تحطيم سيفه على رؤوس الاشهاد ، لاعنا الظروف التى وضعته تحت امرة شخصية أصبحت موضع ازدراء الناس جميعا !

وحين وصل ((هدسون لو)) الى انجلترا ، حاول الحصول على وظيفـة حكومية ، ولكن دون جدوى .. فلما أعياه السعى ، أسقط فى يده ، فقرر فى النهاية الانزواء فى احدى المدن الصغيرة ، حيث عاش بقية أيامه متخفيا تحت اسم مستعار !

....

پيجماليون

"سيدتى الجميلة"

المسرحية الخالدة لبرنارد شو



PYGMALION : BERNARD SHAW

(ORIGINAL OF THE MUSICAL PLAY : MY FAIR LADY)

تلخيص وتعليق : الدكتور لويس عوض

هذه المسرحية الخالدة ..

● شهد العالم منذ عامين الفيلم الفنائى الناجح « سيدتى الجميلة » My Fair Lady الذى تقاسمت بطولته النجمة الحسناء « اودرى هيبورن » (فى دور « أليزا دوليتل ») مع الممثل القدير « ركس هاريسون » (فى دور « البروفيسور هيجنز ») . ومن قبل مثلت المسرحية الفنائية المذكورة على مسارح لندن ، لعشرات السنين .. والفيلم والمسرحية مقتبسان عن مسرحية « برنارد شو » الخالدة « بيجماليون » ، التى يعرضها ويلخصها لك الاستاذ الدكتور لويس عوض فى الصفحات التالية :

● فى عام ١٩١٢ وضع « برنارد شو » مسرحيته المشهورة « بجماليون » ، بعد أن ظلت فكرتها تتردد فى ذهنه خمسة عشر عاما . وقد بناها على الأسطورة اليونانية القديمة التى مؤداها أن فنانا يدعى « بجماليون » وفق الى صنع تمثال امرأة جميلة سماها « غلاطية » . وعشق الفنان صنع يديه فتمنى على الآلهة أن تنفخ فيها الحياة ، فاستجابت الآلهة لدعائه .. وقيل انه ندم على ذلك !

ومسرحية « بجماليون » من أخصب مسرحيات برنارد شو : فموضوعها متعدد النواحى ، وهو يحتمل أكثر من تأويل . **فهو من ناحية اجتماعية يثبت أن الفوارق بين طبقات المجتمع فوارق مكتسبة ، أهمها استعمال اللغة وآداب السلوك . فاذا قيض لأحقر حقير أن يتعلم النطق السليم ، وأن يتدرب على آداب السلوك ، لما كان هناك فرق جوهرى بينه وبين أعظم عظيم فى المجتمع** . وهو من ناحية انسانية يصور العلاقة بين العالم أو الفنان الخالق

وبين صنع يديه !.. ان هناك علاقة أبدية بين الخالق وما خلق ، هى حب الأب لما أنجب من ولد ، وكل خالق يرى صورته فيما خلق .

ولكن المشكلة الكبرى مشكلة حدود : فكما أن الحدود مرسومة وواضحة بين السماء والأرض ، فان الحدود مرسومة وواضحة بين كل عبقرى خالق وما خلق . ومن تجاوز هذه الحدود هلك .

وانما يسعى العبقرى الخالق ليرفع أبناء الأرض الى سمائه . وهو يقبل أن يجاورهم اذا رضوا أن يتجردوا من أدران المادة ومن أوحال الأرض ليعيشوا معه فى سمائه .

أما سماؤه فباردة لا دفء فيها ولا حياة ، لأنها سماء الفكر المجرد التى لا مكان فيها لعواطف الانسان ولا لمطالب الجسد .

وهذه هى المشكلة التى تجابه الانسانية : كيف تصعد الى الذرا الصافية دون أن تتجرد من سحر الحياة .

والحل ؟ الحل لا يزال بعيدا .

لأن غلاطية لم ترتق الا درجة واحدة من هذا السلم الطويل .. ثم خافت من الصفاء المطلق فهربت الى عالمها الأول !

— ١ —

● **نحن** الآن فى (كوفنت جاردن) ، وهو حى من أحياء لندن ، حيث دار الأوبرا تجاور سوق الخضر وكنيسة « سانت بول » . وقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة مساء ، وانصرف النظارة عن دار الأوبرا ، وتفتحت مزاريب السماء فانهمرت الأمطار بغزارة ، وهرع السابلة الى مدخل الكنيسة ليحتموا بين أعمدة المدخل من البروق والرعود ومن ماء السماء .

وعلى درج الكنيسة ، وبين أعمدة مدخلها ، اختلط علية القوم لابسين ثياب السهرة ، بأوساطهم وسفلتهم ، وكلهم مشغول بهذا الجو المطير ، الا رجلا واحدا بينهم أدار ظهره للجميع وذهب يدون فى مذكرته أشياء فى انهماك تام ، وكان هذا هو الأستاذ « هنرى هيجنز » ، وهو علامة فى الأربعين من عمره تفقه فى « الفونطيقا » أى علم الأصوات .

ومن الواقفين سيدة من الوجهاء الفقراء هى مسز « اينسفورد هيل » ، وابنة لها هى « كلارا » ، كثيرة التأفف ، تتشبه ببنات المجتمع ، وابنها الشاب فريدى وهو فى العشرين من عمره ، وقد أرسلته السيدتان ليبحث لهما عن تاكسى ليعودا به الى دارهما ، فعاد اليهما مبتلا بماء المطر ، دون أن يوفق فى مسعاه .

وتعنف السيدتان فريدى لأنه فشل فى بحثه عن تاكسى ، وتلحان عليه فى أن ينطلق من جديد ليعيد البحث ، فينطلق المسكين وقد فتح مظلته ، ولكنه يصطدم فى طريقه ببنت من بائعات الزهور ، فتسقط منها سلتها وتقع منها بعض زهور البنفسج فى الأوحال . ويعتذر لها فريدى ثم يمرق كالسهم ليجدد بحثه عن تاكسى .

وتحتج بائعة الزهور على هؤلاء الوجهاء الذين أتلفوا بعض زهورها ، ويعلو صوتها مطالبة بثمن ما تلف ، بعبارات بلدية شائقة ، وبلهجة بلدية صادرة من أعماق أحياء الفقراء بلندن ، فتخرج الألفاظ من فمها منكرة النبرة ، ممطوطة السواكن ، مأكولة المتحركات ، مجوفة النطق ، كأنها عواء حيوان ثائر ، حتى لتبدو متعة للسامعين . **انها « اليزا دوليتل » ، بائعة الزهور الجميلة التى لم تتجاوز ثمانية عشر ربيعا ، وقد وقفت بشعرها المنفوش بين أعمدة**

الكنيسة ، فى ثوبها القذر ، ومعطفها الذى تراكم عليه غبار لندن .

وتحاول السيدة أن تهدىء من ثائرتها ، فتعوضها عما تلف من زهور بستة بنسات كاملة . وهنا ينضم الى الجماعة سيد آخر فى ثياب السهرة متقدم فى السن يبدو عليه أنه من العسكريين ، واسمه الكولونيل « بيكرنج » ، وهو يندس بينهم اتقاء للبلل . وتعرض عليه البنت « اليزا » زهورها ، فيردها عنه برفق ، فليس فى جيبه فكة . وتلح « اليزا » فى العرض ، فيصرفها ببنس ونصف هى كل ما وجده فى جيبه من نقود صغيرة .

وهنا يتدخل رجل من الواقفين وينبه البنت أن تعطى السيد زهرة لقاء ما أخذت من مال ، حتى لا يظن أحد أنها شحاذة تتوسل للشحاذة ببيع الزهور . ويحذرها من الرجل الواقف خلفهم الذى يدون كل كلمة تقولها فى مذكرته ، فهو لا شك من رجال البوليس السرى ، والا لما اهتم بتدوين ما يقوله الناس !

وتتجه جميع الأنظار الى الرجل المنهمك فى تدوين مذكراته ، فتنجزع اليزا وتحاول أن تثبت للجميع انها بنت شريفة ، وانها لا تقصد سوءا من حديثها مع السيد العجوز . وتثور ثائرة الواقفين دفاعا عن البنت المسكينة التى لم ترتكب جرما حتى يلاحقها هذا الجاسوس على هذا النحو ـ فقد حسبوا الأستاذ هيجنز مخبرا متربصا لها ! ـ ويحاول الأستاذ هيجنز أن يهدىء من ثائرتها ومن ثائرة الجمع الهائج بسبب تدخل البوليس فيما لا يعنيه ومصادرته أرزاق الفقراء ، فيوضح لهم أنه ليس من رجال البوليس ، ويطلع اليزا على مذكرته فلا تجد فيها كلاما

مفهوما ولكن تجد فيها خطوطا وعلامات وحروفا لا سبيل الى قراءتها ، فتعجب لذلك ويعجب معها الواقفون . ولكن الأستاذ هيجنز يقرأ عليهم ما كتب مقلدا نطق اليزا تقليدا لا تحريف فيه . فعلماء الأصوات قد اصطلحوا على حروف الهجاء غير ما اصطلح عليه الناس لتحديد اللهجات وتسجيل الفوارق فى النطق مهما كانت طفيفة .

ولا تهدأ ثائرة اليزا لما رأت ؛ بل يزداد اضطرابها ، ويزداد اضطراب الجميع ، فينبرى منهم من يسب الأستاذ هيجنز : فمنهم من يصر على انه جاسوس يبالغ فى التفانى سعيا وراء الترقية .. ومنهم من يذهب الى أنه مجرد رجل فضولى هوايته مضايقة الناس .. وكل ينطق بلهجته الخاصة ، والأستاذ هيجنز يستمع اليهم فى شغف واهتمام . وهذا لون من الحديث الذى جرى :

الواقف : انه ليس مخبرا . انه فضولى سخيف . نعم انه فضولى . ثقوا من ذلك .. انظروا الى نعليه .

كاتب المذكرات (يلتفت اليه فى لطف) : وكيف حال أهلك جميعا فى حى (سلسى) ؟

الواقف (وقد أخذه الشك) : ومن قال لك ان أهلى من حى سلسى ؟

كاتب المذكرات : هذا لا يهمك . انهم من حى سلسى **(ملتفتا الى البنت)** ماذا جاء بك الى أطراف لندن الشرقية وانت مولودة فى حى (ليسون جروف) ؟

بائعة الزهور (مرتاعة) : وأى ضرر هناك فى تركى (ليسون جروف) ؟ انه كان حيا قذرا لا يليق بخنزير أن يعيش فيه ، وكنت أدفع ايجارا قدره أربعة شلنات وستة بنسات أسبوعيا **(تبكي)** اهىء .. اهىء .. اهىء .. اهىء !

كاتب المذكرات : عيشى أينمـا أردت ولكن كفى عن اصدار هذه الأصوات !

ولكن اليزا تمضى فى الدفاع عن نفسها كأنهـا موضع اتهام . فهذا الرجل العجيب يعرف شـيئا عن منبتها وتنقلاتها كأنه يتعقب آثارها . ويطمئنها السيد العجوز فى حنان أبوى فلا تطمئن ، بل تمضى فى التنديد بهذا الرجل الذى يتدخل فيما لا يعنيه .

ويغتاظ أحد الواقفين فيتحداه قائلا :

— أتعرف من أى مكان أنا ؟

وما أن يصغى الأستاذ هيجنز اليه حتى يجيب على الفور :

— من (هوكستون) !

ويزداد غضب الجميع على هـذا الرجل الغريب لأن اجابته كانت صحيحة ، ويتأكد فى روع بعضهم أنه جاسوس ماهر يتعقب الناس ويعرف كل شىء عنهم ، فيطالبونه بابراز التصريح الذى يخوله أن يتدخل فى شئون الناس . ويتحداه رجل آخر من الوقوف قائلا وهو يشير الى السيد العجوز :

الواقف المتهكم : نعم اخبره من أى مكان هو اذا أردت أن تشتغل بقراءة الغيب !

كاتب المذكرات : انه من (تشلتنهـام) وقد تعلم فى « هارو » ثم درس فى « كمبردج » ثم عاش فى الهند .

السيد العجوز : بالضبط !

وهنا يضحك الجميع ، ويتحول غضب العجوز المتهكم الى اعجاب بهذا الرجل الغريب الذى يعرف كل شىء عن منبت الناس ! ويحسبه حاويا يرتزق من هذه الألعاب فى الملاهى !

وينبه الأستاذ هيجنز الجمع المحيط به الى أن المطر قد انقطع ، فيمضى كل الى حال سبيله ، حتى السيدة وبنتها « كلارا » تنصرفان قبل أن يعود اليهما « فريدى » بالتاكسى . ولا يبقى على درج الكنيسة الا الأستاذ هيجنز والسيد العجوز وبائعة الزهور .

السيد : أتسمح لى أن أسألك كيف تعرف منشأ الناس ؟

كاتب المذكرات : بعلم الأصوات . لا شيء غير علم الأصوات ، علم الكلام . فهذه مهنتى وهى أيضا هوايتى . وما أسعد من يستطيع الارتزاق من هوايته ! بهذا العلم تستطيع أن تميز الايرلندى أو ابن « يوركشاير » بلهجته ! أنا أستطيع أن أحدد مكان أى رجل فى نطاق ستة أميال . بل فى نطاق ميلين فى داخل لندن نفسها ، وأحيانا فى نطاق شارعين !

بائعة الزهور : كان ينبغى أن تخجل من نفسك ، فأنت نذل جبان !

السيد : ولكن أتستطيع أن ترتزق من هذا العمل ؟

كاتب المذكرات : بالتأكيد . بل فيه رزق واسع . فنحن فى عصر المحدثين . فالناس يبدأون حياتهم فى (كنتيش تاون) بدخل سنوى قدره ثمانون جنيها ، ثم ينتهون بالاقامة فى (بارك لين) بدخل سنوى قدره مائة ألف جنيه ! .. ولكن ما ان يفتحوا أفواههم حتى يفتضح منشؤهم . من هذا ترى انى أستطيع أن أعلمهم .

بائعة الزهور : سله أن يعنى بأموره فقط ، وأن يترك بنتا فقيرة مثلى وشأنها .



النجمة العالمية « جولى أندروز » والممثل القدير « ركس هاريسون »
يمثلان (سيدتى الجميلة) على مسارح نيويورك ، فى عام ١٩٥٦

كاتب المذكرات (ينفجر) : اسمعى يا امرأة : كفى فورا عن هذه الأصوات المنكرة أو ارحلى الى معبد آخر تحتمين فيه .

بائعة الزهور (تتحداه فى ضعف) : من حقى مثلك أن أبقى هنا اذا شئت .

كاتب المذكرات : ان امرأة تنطق بهذه الأصوات المقبضة المنكرة لا يحق لها أن تكون فى أى مكان ، بل لا يحق لهـا أن تعيش . تذكرى انك الانسان ، تشتعل فيه الروح ويسمو بالهبة الالهية ، هبة الكلام !.. تذكرى أن لغتـك هى لغـة « شكسبير » « وملتون » والكتاب المقـدس ، ولا تجلسى هنالك تهدلين كأنك حمامة ممرورة !

ثم يلتفت الأستاذ هيجنز الى السيد العجوز ويقول : **« أترى هذه المخلوقة التى تتكلم الانجليزية بلهجة الأرصفة ، تلك اللهجة التى ستبقيها فى الأوحال الى نهاية عمرها ؟ أنا مستطيع يا سيدى أن أجعل من هذه البنت دوقة فى حفلة أنيقة من حفلات السفراء !** كما أستطيع أن أجد لها عملا كوصيفة لسيدة أو كبائعة فى حانوت ، وهو أمر يتطلب معرفة بالانجليزية خيرا من معرفتهـا . هـذا بعض ما أعمله مع المليونيرات المحدثين من التجـار . ومن أرباحى التى أجنيها من هذا السبيل أنفق على أبحاثى العلمية فى علم الأصوات ، وأقرض الشعر على طريقة « ملتون » .

السيد : وأنا أيضا أدرس اللهجات الهندية .

كاتب المذكرات (باهتمام) : صحيح ؟ أتعرف الكولونيل « بيكرنج » مؤلف كتاب « السنسكريتيه العامية » ؟

السيد : أنا الكولونيل بيكرنج . ومن أنت ؟

كاتب المذكرات : أنا هنـرى هيجنـز ، مؤلف كتـاب « حروف الهجاء العالمية » .

بيكرنج (فى حماس) : لقد جئت من الهند لأقابلك !

هيجنز : وأنا كنت سأسافر الى الهند لأقابلك !

وهكذا يتعرف الرجلان كل على صاحبه ، بعد أن سمع كل منهما بالآخر كما يسمع العلماء بالعلماء . وينصرفان معا بعد أن يمطرا بائعة الزهور ببدرة من المال لتكف عن شكايتها المستمرة . وما أن ينصرفا حتى يصل فريدى وقد وفق الى اصطياد تاكسى ، فلا يجد السيدة ولا ابنتها . ولكن بائعة الزهور تريحه من الحرج الذى نزل به فتستقل التاكسى وهى تلوح بما لديها من فضة كثيرة ، وتترك فريدى فاغرا فاه من فرط العجب !

— ٢ —

وفى صباح اليوم التالى يزور الكولونيل بيكرنج دار الأستاذ هيجنز فى (ومبول ستريت) ليشاهد معمله . فاذا به يجد معملا مجهزا بجميع الأدوات اللازمة لعلم الأصوات : فهناك فونوغراف وأسطوانات من الشمع لتسجيل الأصوات ، وهناك عدد كبير من الشوك الرنانة ، وبيانو ، وتمثال يبين مخارج الأصوات فى رأس الانسان . ويعلم بيكرنج من هيجنز أنه قد استطاع أن يميز بين مائة وثلاثين صوتا من أصوات الحروف الساكنة وأن يسجلها بآلاته ، فيعجب لتقدم صاحبه فى علم الأصوات .

وفيما هما يتدارسان هذا الموضوع ، تدخل مسز بيرس ـ وهى المدبرة فى دار الأستاذ هيجنز ـ لتعلن لهما أن بائعة الزهور « اليزا دوليتل » قد جاءت تطلب مقابلة هيجنز . **وتدخل اليزا قائلة أنها فكرت مليا فيما سمعته من هيجنز فى الليلة السابقة ، وانها قررت أن تتلقى عليه دروسا فى الكلام حتى تتفتح أمامها أبواب المستقبل ، فهى لا تريد أن تظل**

بقية حياتها تبيع الزهور فى ركن الشارع عند (توتنام كورت رود) ، بل تأمل أن يتاح لها فى يوم من الأيام أن تبيع الزهور فى دكان محترم . واذا كان الحاجز الوحيد بينها وبين ذلك هو حسن اللهجة ، فهى قد جاءت لتتلقى دروسا تقوم بها لهجتها ، وهى لم تجىء راجية ولا متطفلة لأنها تريد أن تدفع للأستاذ هيجنز أجره على ذلك كاملا ، بل هى على استعداد لأن تضحى بشلن كامل لقاء كل درس تتلقاه !

ويعجب هيجنز و بيكرنج لهذا العرض العجيب ، ويجدان فى كلامها الساذج متعة فائقة . ويجد هيجنز فى شخصية هذه الفتاة الطموحة ، وفى قذارتها الفظيعة ، وفى وضاعتها المتعة ، ما يسحره ! .. ويذكره بيكرنج بقوله فى الليلة السابقة أنه مستطيع أن يجعل من بنت الأرصفة هذه سيدة من سيدات المجتمع يراها الناس فى حفلة من حفلات السفراء فيخالونها دوقة من الدوقات !.. **ويتحداه أن يجرب علمه وفنه على هذه الفتاة . فيتراهن على ذلك الرجلان ، ويكون الرهان نفقات التجربة : فان نجحت تكبدها بيكرنج ، وان فشلت خسرها هيجنز !**

وهكذا تبدأ هذه التجربة العجيبة ، ولكن فى جو يخلو من الحرج : فالمدبرة مسز بيرس تحتج على ذلك وتتهم هيجنز بأنه خال من كل شعور انسانى ، فهى مشغولة بمستقبل هذه البنت الساذجة التى تريد أن تخرج من الأوحال . ترى ماذا هو فاعل بها بعد أن تنتهى التجربة ؟ أما هيجنز فله رأى آخر : **انه ينظر اليها نظرة العالم الذى يشرح الحشرات ويجرى تجاربه على الأحياء فى سبيل تقدم العلم وتقدم الانسانية . لقد جاءت اليزا دوليتل من الأوحال ، ولا بأس أن تعود الى الأوحال بعد أن تنتهى التجربة !** ويرى بيكرنج بعض ما تراه مسز بيرس ، فيتردد بعض الشىء ، ولكنه

يخضع فى النهاية أمام اهتمام الأستاذ ، والحاح التلميذة ، وسحر التجربة !

وتبدأ التجربة بالحمام ، اذ لابد أن تزيل مسز بيرس عن جسد اليزا أكداس الأوساخ التى تراكمت عليه ، ولا بد أن تحرق ثيابها حتى لا ينتقل منها القمل الى بقية المنزل ، فتقذف بها فى الفرن ، ولا تبقى منها شيئا الا قبعتها ، على سبيل الذكرى .. ولابد أن تأتيها بثياب جديدة لتبدأ بها حياتها الجديدة ، فهى سوف تقيم معها فى دار الأستاذ هيجنز لتكون على صلة دائمة بها ، ولتكون تحت اشرافها الدقيق ، ولتتعلم الفتاة منهما آداب السلوك .

وحين تدخل اليزا الحمام لأول مرة نعلم بأنها رأت جسدها عاريا فى المرآة للمرة الأولى ، فاحمر وجهها خجلا وبادرت الى المرآة فغطتها بفوطة الحمام !

وفيما هى فى الحمام يأتى أبوها مستر دوليتل . وهو كناس عجوز ولكنه قوى البنية ، شديد الذكاء ، شديد الاقبال على الشراب ، وقد جاء ليساوم هيجنز على بقاء ابنته . ويغضب هيجنز ويهم بطرد الرجل وابنته جميعا أول الأمر ، ولكن هذا الكناس الشاعرى الفطرة يقنعه بلباقته وقوة حجته المستمدة من واقع الحياة أن يعطيه خمسة جنيهات « كدفعة أولى » .

دوليتل : حقيقة الأمر هى انى قد استلطفتك يا سيدى ، وان كنت تريد البنت فلن أصر على عودتها الى البيت اذا كان هناك مجال للاتفاق معى . وهى بين الفتيات فتاة جميلة بديعة . ولكنها كبنت لى لا تساوى ثمن طعامها . لهذا أقول لك بصراحة : ان كل ما أطلبه هو حقوقى فيها كأب . وأنت آخر من ينتظر منى أن أفرط فيها بغير مقابل . فأنت على ما أرى من الرجال المستقيمين يا سيدى . ما قولك ؟ ما قيمة

خمسة جنيهات لديك ؟ وما قيمة اليزا لدى ؟ **(يعود الى مقعده ويجلس جلسة القاضى) .**

بيكرنج : أظن أنه ينبغى أن تعرف يا دوليتل أن نوايا مستر هيجنز شريفة تماما .

دوليتل : طبعا شريفة يا سيدى . ولو كنت أعتقد أنها غير شريفة لطلبت خمسين جنيها .

هيجنز (مشمئزا) : أتقصد أن تقول أيها الوغد العديم الشعور أنك تقبل أن تبيع بنتك بخمسين جنيها ؟

دوليتل : بوجه عام لا ، ولكنى أفعل أشياء كثيرة لأرضى سيدا مثلك ، صدقنى !

بيكرنج : أأنت مجرد من الأخلاق يا رجل ؟

دوليتل (بغير خجل) : نعم يا سيدى فهى تكلف كثيرا . ولو كنت فى مثل فقرى لتجردت منها كذلك .

ودوليتل فيلسوف على طريقته الخاصة ، رغم أنه كناس . فهو يرفض أن يقبل فى ابنته عشرة جنيهات ، مكتفيا بخمسة ، لأنه يعلم أن المال الكثير فى جيبه سوف يسبب له المتاعب . وهو يفتن هيجنز ببلاغته الفطرية ، فيعرض عليه أن يبقى مع ابنته فيجعل منه فى ستة أشهر خطيبا مفوها يستطيع ببيانه أن يدخل البرلمان ، ولكنه يعتذر بقوله أنه يفضل الحانة على السياسة !

— ٣ —

● **وتمر** شهور قليلة على سكان المنزل رقم (٢٧ ، أ ، ويمبول ستريت)لا يحدث فيها شيء ، ويحدث فيها كل شيء !

فالأستاذ هيجنز لا هم له الا تدريب اليزا على النطق السليم وعلى العبارة السليمة .. واليزا لاهم لها الا تعلم النطق السليم والعبارة السليمة . أما الكولونيل بيكرنج

فتستوعبه هذه التجربة استيعابا ، فنراه ينتقل الى دار هيجنز ليقيم فيها . ويكتشف هيجنز أن للتلميذة أذنا أرهف حسا وأقدر على تمييز الفوارق بين الأصوات من أستاذها ، ويعترف بأن اليزا لولا جهلها لفاقته فى فن الكلام !

وبعد أن يقوم هيجنز لسان اليزا ، يستبين له أن الأمر ليس على البساطة التى تصورها . فهو قد قوم لسان بائعة الزهور ، ولكن ترى ماذا هو فاعل بعقلها الساذج الذى لم يحو من العلم شيئا ؟

ولكنه لم يزل بعد فى المرحلة الأولى ، ولا تزال أمامه شهور قبل أن ينقضى الأجل المحدد للتجربة وهو ستة شهور . والحل عنده أن تتجنب اليزا فى حديثها مع الناس الكلام فى أى موضوع الا السؤال عن الصحة والتعليق على الجو .

ويصطحب هيجنز اليزا لزيارة أمه فى يوم استقبالها الأسبوعى ، ومعهما بيكرنج ، وهو يبتغى من ذلك اجراء التجربة الأولى على اليزا فى المجتمع الصغير ، قبل أن يأتى اليوم العظيم فيصطحبها الى المجتمع الكبير !

وفى دار أمه يلتقى هيجنز بآل « اينسفورد هيل » الذين كان قد التقى بهم من قبل فى تلك الليلة المطيرة ، ليلة (كوفنت جاردن) . يلتقى بالأم المهذبة الرقيقة الحاشية ، وببنتها « كلارا » التى تصطنع العصرية اصطناعا ، وبولدها « فريدى » التافه الذى لا يملك مالا ولا يتقن عملا . فآل « اينسفورد هيل » أسرة كانت على شىء من الجاه ثم ضاع منها الجاه ولم يبق أمامها الا الاحتفاظ بالمظاهر واخفاء الفقر ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

وتنجح التجربة الأولى ، وتفشل ، فى آن واحد !

تنجح لأن اليزا قد تبدلت حالها تماما فلم يفطن الى حقيقتها أحد ! .. بل يراها آل اينسفورد هيل فى ثيابها



البروفسيور ((هيجنز)) يدرب تلميذته ((أليزا دوليتل)) على طريقة النطق باللهجة الارستقراطية السليمة ..

الفاخرة التى ابتاعها لها الكولونيل بيكرنج ، ويستمعون الى نطقها الجميل الذى أسبغه عليها الأستاذ هيجنز ، **فلا يفطنون الى أنها بائعة الزهور التى التقوا بها منذ شهور على درج كنيسة سانت بول ! .. ويفتن الشاب فريدى بجمالها من أول وهلة ، فيجلس أمامها ويشخص اليها شخوص العاشق الولهان طول الوقت حتى تنصرف !**

ولكن التجربة **تفشل** كذلك لأن اليزا تخرج عن الحدود المرسومة لها فى الحديث وهى السؤال عن صحة الناس والتعليق على الجو . فما أن تذكر السيدة اينسفورد هيل كلمة الانفلونزا حتى تقص اليزا على الحاضرين كيف أن عمتها ماتت بالانفلونزا ، ثم تروى لهم كيف أن أباها كان يداوى أخته بشراب « الجن » وكيف أن أهلها قتلوها ليسلبوها ما تملك ثم زعموا أن الانفلونزا قضت عليها ! .. **ويذهل آل اينسفورد هيل لهذه الفتاة الجميلة الأنيقة التى تروى أفضح الأشياء فى أجمل لهجة ، وتستخدم بين الحين والحين ألفاظا لا يستخدمها الا حثالة الناس !**

ولكن هيجنز يشرح لهم أن هذا دأب الارستقراطية الجديدة التى تتعمد التشبه بأبناء الشعب الحقيقيين فى استعمال الألفاظ البذيئة . وتفتن كلارا بهذه الروح العصرية فتحاول تقليد اليزا . أما فريدى فهو غارق الى أذنيه فى بحر الغرام ، ولا يهمه من كل هذا الا أن يتملى من طلعة هذه البنت الرائعة الجمال !

أما والدة هيجنز فتعنف ابنها على هذا العبث الخطر ، فلا تجد منه الا قوله :

هيجنز : أتسمين هذا عبثا ؟ ! ان هذا أصعب عمل قمت به فى حياتى . لا تخطئى التقدير يا أماه ، فأنت لا تتصورين ما هنالك من متعة فى تشكيل حياة انسان حتى يخرج منه



« اليزا دوليتل » فى حلبة السباق ، مع سيدات الطبقة الراقية ، يتابعن الجياد المتسابقة ..

انسان آخر مختلف عنه تمام الاختلاف ، عن طريق خلق لغته خلقا جديدا . ان هذا يسد ذلك الفراغ الهائل الذى يفصل الطبقة عن الطبقة ، ويباعد بين الروح والروح .

نعم ان هيجنز لا يفكر الا فى حنجرة اليزا ، وفى موضع لسانها من حلقها أو من شفتيها كلما فاهت بكلمة ! .. حتى عقل اليزا يجد هيجنز السبيل الى تشكيله تشكيلا جديدا ، فهو يصطحبها كل يوم الى معارض الفن والى المسارح والى دور الأوبرا لتكتمل بذلك ثقافتها .

انه يحس احساس الخالق الذى يصوغ الخليقة على شاكلته . ولكنه يغفل أهم عنصر فى الخلق الا وهو **روح** الخليقة !

— ٤ —

● **ويأتى** اليوم العظيم . يأتى فى الموعد المضروب . ويخرج ثلاثتهم — هيجنز وبيكرنج واليزا — الى الحفل العظيم ، حيث يلتقى علية القوم بلندن فى حديقة سفير من السفراء .. وتتلو الحفل العظيم مأدبة عشاء عظيمة ، وبعد المأدبة يقصد ثلاثتهم دار الأوبرا فلا يعودون منها الا عند منتصف الليل .

وتنجح التجربة العظيمة نجاحا عظيما . فتتحدث لندن كلها بزهرة المجتمع الجديدة الآنسة اليزابيث دوليتل .



أحد السفراء يطلب الى البروفيسور « هيجنز » أن يقدمه الى تلميذته الحسناء ، ليراقصها .. فى أحدى الحفلات

وهكذا تنتهى التجربة .

ويحمد هيجنز الله على أن التجربة قد انتهت .

ولكن نهاية التجربة تكون بداية المشاكل .

فالرجلان يجلسان بعد عودتهما من دار الأوبرا ويتذاكران فى اعياء شديد انتصارات اليوم ، واليزا شاخصة اليهما فى سهوم ، ثم فى غيظ شديد . **انهما لا يلتفتان اليها ولا يوجهان اليها الحديث ، كأنها شخص لا صلة له بالموضوع ، بل كأنها مجرد أداة جامدة أدت الغرض منها ولم تعد بهما حاجة اليها !**

نعم لقد احتملت اليزا الكثير . احتملت من سلاطة لسان هذا الأستاذ المتأله ومن زجره مالا يحتمله بشر . ولولا دماثة الكولونيل بيكرنج وآدابه العالية لكانت حياتها فى (ويمبول ستريت) جحيما لا يطاق . لقد كانت تكد الليل والنهار بلا انقطاع . كانت تستيقظ على الأصوات وتعيش على الأصوات وتحلم بالأصوات . لقد كانت تخدم هذا الأستاذ المتأله خدمة الأم والأخت والبنت ، بل خدمة جارية اشتراها فى سوق النخاسة بخمسة جنيهات ! .. فتعد له قهوة الصباح وتشترى له حاجاته من السوق وترتب له أوراقه وتأتيه بخفيه اللذين ما عرفت لهما موضعا ثابتا طوال الشهور الستة التى أقامتها فى ومبول ستريت ! .. **وهى لا تذكر انها سمعت منه كلمة شكر أو كلمة تشجيع أو كلمة حنان . ولولا أن الكولونيل بيكرنج كان ينهض عند قدومها احتراما ويرفع قبعته عن رأسه كلما التقى بها ويفتح لها الباب لتتقدمه فى المسير ويناديها من حين لآخر بقوله « يا آنسة دوليتل » لكانت مجرد متاع أو قطعة من أثاث البيت** . نعم لقد احتملت من هيجنز فوق ما يطاق . وفى سبيل ماذا ؟ أهى تحبه ؟ نعم . لا . انها لا تفكر فى الحب . انها لا تطلب الا العطف .

كلا . ان هذا لا يطاق . وهيجنز الآن يحمد الله على أن التجربة قد انتهت . انه متعب ويريد أن ينام ، وهو يسألها أن تأتيه بخفيه !

وتنفجر اليزا من فرط الغيظ فتقذف بالخفين فى وجهه صائحة :

اليزا : اليك بالخفين . خذهما . خذ خفيك وأتمنى أن يأتيك بالنحس كل يوم من أيام حياتك !

هيجنز (ذاهلا) : ماذا جرى ؟ **(يقترب منها)** ماذا جرى ؟ انهضى **(ينهضها)** أليس كل شىء على ما يرام ؟

اليزا (لاهثة) : كل شىء على ما يرام بالنسبة لك . لقد كسبت لك الرهان وهذا يكفيك . أما أنا فلا وزن لى على ما أعتقد !

هيجنز : أنت كسبت لى الرهان ! أنت أيتها الحشرة المدعية ؟ أنا الذى كسب الرهان !

نعم . الحمد لله ان التجربة قد انتهت . لسوف ترحل فى الصباح الباكر . ان هيجنز لا يفكر فى مصيرها ، فلتفكر هى اذن فى مصيرها ! . . لقد جاءت الى داره منذ ستة شهور بمشكلة هى مشكلة الطبقة السفلى ، وقد أعانها على حل هذه المشكلة . وهى الآن تخرج من داره بمشكلة أخرى أشد تعقيدا من المشكلة الأولى : لقد انفصلت اليزا عن طبقتها الأولى انفصالا لا رجعة فيه ، فهى الآن لا تستطيع أن تقف على ناصية (توتنهام كورت رود) لتبيع الزهور . ان هيجنز قد جنى عليها جناية كبرى ــ كما قالت أمه ــ لأنه « علمها قواعد السلوك وراضها على العادات التى تمنع السيدات المهذبات من كسب قوتهن بعرق جبينهن ، دون أن يمنحها دخل السيدات المهذبات ! » .

ولكن هذه ليست مشكلة اليزا الوحيدة ، فهى لم تتحول فى المظهر فحسب ، بل اهتزت فى أعمق أعماقها لهذه الحيـاة الجديدة . فنفسها قد انصقلت وقلبها قد تفتح للحياة العليا ، وهى الآن تطلب حقها فى هذه الحياة العليا . هى تطلب حقها فى الحب وفى الاحترام وفى العطف وفى الود الكريم . وهى أشياء ما كان لها أن تجدها فى محيط الكناسين أو فى عالم الأرصفة !

— ٥ —

٥ **وفى** الصباح الباكر تخرج اليزا من دار (ويمبـول ستريت) وتقصد الى دار السيدة الفاضلة والدة الأسـتاذ المتأله هيجنز . وما أن يستيقظ هيجنز و بيكرنج ولا يجدانها حتى ينزعجا أشد الانزعاج . ان هيجنز لم يخطر بباله قط أن انتهاء التجربة معناه رحيل اليزا . لقد تعود على اليزا حتى غدت جزءا من حياته اليومية ، كالأكل والشرب والعمل ، وهو لا يتصور الحياة بغيرها !

نعم انه يحبها . ولكنه يحبها على طريقته الخاصـة . يحبها حب الفنـان لصنع يديه . يحبهـا حب بجمـاليون لغلاطية ، حب المثال للتمثال . ولكن بيجماليون الذى صارت بذكره الأساطير كان فنانا أحمق لأنه تجاوز فى حبه الحدود التى رسمتها الحياة بين الخالق والمخلوق ، فنزل من سموات الفن العالية ليسوى نفسه بما صنعت يداه !

ان هيجنز يريد من اليزا البقاء الى جواره ، دائما ، الى نهـاية العمر ! هو لا يريدها لا زوجة ، ولا عشـيقة ، ولا خادمة ، ولكن جزءا من حياته وقطعة من فنه وعلمه ، يرى نفسه فيها دائما !



البروفيسور هيجنز يريد من « أليزا » البقاء الى جواره ،
دائما الى نهاية العمر !

ويتصل هيجنز بالبوليس ليبحث له البوليس عن اليزا المختفية .. ويقصد مع بيكرنج دار أمه ليطلعها على ماجرى . وهناك يجد اليزا ، ويكون بينهما حديث عاصف : انه يعرض عليها أن تعود الى (ويمبول ستريت) ، ولكنها تود أن تعرف منه على أى أساس تعود . انها تحب أن تكون الى جواره ، ولكنها تشترط عليه أن يقلع عن فظاظته واستهانته بشعورها . فماذا يكون رد هيجنز ؟

هيجنز : ان هذا كل ما ستنالينه منى حتى تكفى عن حماقة السفهاء . ان أردت أن تكونى سيدة فقد وجب أن تكفى عن الاحساس بأن من حولك من الرجال يهملونك اذا لم يقضوا نصف وقتهم ينتحبون فى غرامك ونصفه الآخر فى تأديبك باللكمات . **واذا كنت لا تطيقين الحياة فى هذا العالم البارد الذى أعيش فيه ، ولا تحتملين عناءها المضنى ، فخير لك أن تعودى الى الأوحال** . عودى الى الكد والكدح حتى تصيرى أقرب الى الحيوان منك الى الانسان ، ثم أسرفى فى الشجار والشراب حتى يطبق النوم جفنيك . يا لها من حياة ممتعة ، حياة الأوحال ! انها حياة واقعية ، حياة حارة ، حياة عنيفة تحسين بها لأنها تنفذ فى الجلد مهما كان سميكا ، وتنعمين بطعمها ورائحتها بالفطرة دون حاجة الى جهد أو تدريب . انها ليست كحياة العلم والأدب والموسيقى الكلاسيكية والفلسفة والفن . **أنت ترين فى انسانا بارد الطباع ، خاليا من الشعور ، محبا لذاته . اذن فامضى الى الناس الذين تأنسين اليهم . تزوجى من خنزير مكتنز بالعواطف الرخيصة وبالمال الكثير ، له شفتان سميكتان يقبلك بهما ونعلان سميكان يضربك بهما . واذا كنت لا تقدرين ما حصلت عليه فلتحصلى على ما تقدرين !**

وهكذا تيأس اليزا من الوصول الى حل سوى . ان كلام

هيجنز لا شك مقنع فى عالم من المجردات . ولكن منطقه ينهار أمام منطق الحياة القوى . انه يعرض عليها أن يتبناها ، ولكن نفس اليزا الواضحة وأنوثتها المتفتحة لا تقنعان بهذه العلاقة المفتعلة فى دنيا من الأفكار الباردة . انها تطلب حقها فى الحياة !

ويستقر رأى اليزا على قرار خطير :

ان الفتى « فريدى اينسفورد هيل » عاشق لها متيم بحبها ، وهو يلاحقها بهواه فى كل مكان ، ويسطر لها كل يوم الرسائل والرسائل يبثها نجواه ، ويقول انها نعيمه الأبدى ويعرض عليها الزواج ليدخل بها هذا النعيم . حقا ان الفتى فريدى فتى تافه اذا قورن بهذا الخالق الشاهق هيجنز ، ولكنه على الأقل يحبها ويتمنى أن يكرس حياته لارضائها . وحقا أن الفتى فريدى فتى ساذج لا يملك مالا ولا يتقن عملا ، ولكن اليزا سوف تستطيع بارادتها الفولاذية وبحدبها عليه أن تخلق منه رجلا يعتمد على نفسه ويشق طريقه فى الحياة !

هذا هو القرار الخطير الذى اتخذته اليزا دوليتل : قررت أن تتزوج من فريدى !

ويقوم هيجنز والكولونيل بيكرنج بواجبهما نحو اليزا ، فيفتحان لها دكانا تبيع فيه الزهور مع زوجها . ولا تزال اليزا بفريدى تعلمه أصول الصنعة حتى يتقنها ويصبح رجلا بين الرجال ، يعتمد على نفسه ويسوس أسرته .

وهكذا ترد اليزا دوليتل دينها للحياة ، فلقد وجدت من يأخذ بيدها ويرفعها من أوحال الفقر ، ويجعل منها امرأة استكملت عدتها للحياة الكريمة ، فأخذت بيد غيرها ورفعته من أوحال البطالة وجعلت منه رجلا استكمل عدته للحياة الكريمة ..

كارمن

(قصة الحب.. والغيرة.. والجريمة!)

الأوبرا التي خلدت مؤلفها الأديب الفرنسي

"پروسپر ميريميه"



CARMEN : PROSPER MERIME

عرض وتلخيص : عميد الامام

هذه الأوبرا ..

أوبرا غنائية ، مقتبسة عن قصة للروائى الفرنسى « بروسبير ميريميه » ، ووضع موسيقاها الموسيقى الفرنسى « جورج بيزيه » . ومثلت لاول مرة على مسرح « أوبرا كوميك » (بباريس) ، مساء ٣ مارس عام ١٨٧٥ .

— ١ —

● **يدور** الفصل الأول من هذه الأوبرا فى احدى ساحات مدينة (أشبيلية) ، يقع على جانب من الساحة مصنع سجائر ، وعلى الجانب الآخر مركز للحرس .. والوقت ظهر ، وجنود الحرس ـ بملابسهم الزاهية الألوان ـ مبعثرون فى كسل حول مركزهم ، يدخنون ويتفرجون على المارة ..

وبينما قائدهم الأومباشى « موراليس » يعلق على المناظر التى يرونها ، تسترعى انتباههم ـ فجأة ـ صبية ريفية ، شقراء ، بريئة الملامح ، تقف مرتبكة بالقرب منهم .. واذ يسألها « موراليس » عما تبحث عنه ، **تتقدم منه الصبية « ميكايبلا » فى خجل ، وتطلب مقابلة أومباشى الحرس ، فيقول لها فى زهو انه هو نفسه الأومباشى ! ولكنها تجيب بأنها تبحث عن أومباشى بعينه يدعى « دون خوزيه »** ، وتسأل عما اذا كانوا يعرفونه .. وتتبين أنهم يعرفونه جميعا ، ولكنهم يخبرونها بأنه ليس من فرقتهم ، وان الفرقة التى ينتمى اليها ستفد عما قريب لتتولى الحراسة بدلا منهم !

ويدعو « موراليس » الفتاة الى انتظار « خوزيه » داخل المركز ، ولكنها تسارع الى الرفض .. واذ يحيط بها الجنود ويلحون عليها فى أن تنتظر معهم ، تصر ـ فى خجل ـ على

الاعتذار قائلة انها ستعود فيما بعد ، حين تكون فرقة الحرس الأخرى قد حضرت .. ثم تنفلت هاربة من الجنود المحيطين بها ، فيعودون متحسرين الى تأمل الجمهور المرح الذى يملأ الساحة ..

وتقبل فرقة الحرس الأخرى بقيادة الضابط « زونيجا » والأومباشى « دون خوزيه » ، لتحل مكان الفرقة الأولى . وبعد أن تتم اجراءات استبدال الحرس ، يخبر موراليس زميله « دون خوزيه » بأن شابة فاتنة كانت تبحث عنه منذ قليل .. فيقول « خوزيه » لنفسه ، بينما فرقة الحرس الأولى تنسحب : « لابد أنها ميكايلا ! » ..

ثم يبقى خوزيه مع الضابط زونيجا وحدهما فى الميدان ، فيشير الأومباشى خوزيه الى مصنع السجائر قائلا : « ان للفتيات اللواتى يعملن بهذا المصنع شهرة خاصة ! » .. ولكنه يسارع مستطردا انه شخصيا لا يهتم كثيرا بمثل هذه الأمور !.. **فيجيبه الضابط قائلا انه يعتقد أن السبب فى عدم مبالاته هو استحواذ الفتاة التى سألت عنه على كل اهتمامه .. فيعترف خوزيه بأنه فعلا مغرم بالفتاة !**

ويدق جرس المصنع مؤذنا بنهاية فترة العمل ، فيتجمع رجال المدينة حول باب المصنع لمغازلة الفتيات عند خروجهن .. وعندما تخرج العاملات ، يأخذن فى انشاد لحن يشبهن فيه دعوة من يطارحونهن الهوى من الرجال بدخان السجائر الذى يتبدد فى الهواء !

وفى هذه الاثناء ، يبدأ خوزيه فى اصلاح حلقات سلسلة صغيرة مقطوعة ، متظاهرا بعدم الاكتراث لوجود الفتيات .. ويتساءل الرجال جميعا : « ولكن أين كارمن ؟ » .. فما أن تبرز الفتاة حتى يلتفون حولها ويتوسلون اليها أن تخبرهم متى سوف تحبهم .. **فتغازلهم كارمن جميعا ، وترد عليهم**

بدلال : ((متى أحب ؟ .. لست أدرى ! .. ربما لا أحب مطلقا ، وربما أحببت غدا .. ولكن المؤكد أنى لن أحب اليوم !))

.. ثم تغنى بمصاحبة زميلاتها ، بينما تحاول اجتذاب انتباه الأومباشى المتكبر اليها ، ولكن دون أن تحرز أى نجاح ظاهر .. وما أن تنتهى من أغنيتها حتى يعود الشبان الى التوسل اليها بأن تحبهم ، غير انها لا تلتفت لغير الأومباشى الذى يصر على تجاهلها تماما ! .. وعلى نغم اللحن الذى يتردد كثيرا فى هذه الأوبرا ، معبرا عن الاغراء الذى لا يقاوم الذى تحمله كارمن لخوزيه ، وعن الشؤم الذى ينطوى عليه هذا الاغراء العنيف .. **تتقدم ((كارمن)) – فى دلال – من الأومباشى ، وتنتزع من صدرها وردة تقذف بها فى وجهه .. وبينما الجميع يضحكون لما يبدو على خوزيه من ارتباك ، يعلن جرس المصنع نهاية استراحة الظهيرة ، فتعود ((كارمن)) وسائر الفتيات الى عملهن ، تاركين خوزيه يلتقط الوردة وحده !**

وفى هذه اللحظة ، تعود ((ميكايلا)) فيستقبلها خوزيه متلهفا .. وتحدثه الفتاة عن بيته وأمه التى حملتها رسالة اليه ، وعن شىء آخر حملتها اياه ، أغلى من الرسالة ، هو قبلة تسارع ((ميكايلا)) بطبعها فى حنان فوق جبينه .. فيتأثر خوزيه ويتذكر ما انطوى عليه تصرف كارمن من تهديد لراحة باله ، فيشكر الله على أن القبلة التى أرسلتها اليه أمه قد أبعدت عنه خطر الغواية .. وتصر ((ميكايلا)) على تركه وحيدا لكى يقرأ رسالة والدته ، فيقرأها وهو يردد وعدا بعقد قرانه على ميكايلا .. وبينما هو يهم بالقاء الوردة التى رمته بها كارمن ، تسمع جلبة شديدة فى داخل المصنع ، وتتدفق من بابه العاملات خارجات فى فوضى ، بينما يخرج رجال الحرس من مركزهم وعلى رأسهم الضابط ((زونيجا)) !

ويتضح أنه قد حدث شجار بين كارمن وعاملة أخرى ،

وأن الفتيات قد انقسمن الى فريقين، يؤيد كل منهما احدى المتشاجرتين .. فيأمر « زونيجا » الأومباشي خوزيه بأن يذهب مع اثنين من الجنود لفض المشاجرة ، **ولا يلبث خوزيه أن يعود اليه ، ومعه السمراء الفاتنة « كارمن » التى يبدو عليها الارتياح والسرور .. وترفض كارمن — فى دلال مثير — الاجابة على الأسئلة التى يوجهها اليها الضابط ، وتكرر ترديد مقطع غنائى حنون ، فى اغراء واستفزاز ظاهرين !** .. ولكن الضابط — رغم انجذابه لاغراء كارمن — يقرر حبسها ، فيصدر أمره الى الأومباشي باقتيادها الى السجن ، ويعود الى داخل المركز !

وبينما يجلس خوزيه كارمن على مقعد ويشرع فى ربط ذراعيها وراء ظهرها ، تقول له فى ثقة تامة انه لن يأخذها الى السجن ، وانما — على العكس — سيساعدها على الفرار ! .. ويتجاهل الأومباشي كلامها ، فتغنى كارمن لحنا تدعو فيه جنديا شابا — ليس ضابطا ولكنه أومباشي فقط ! — الى حانة (ليلاس باستيا) ليحل مكان عشيقها الذى صرفته .. واذ يطلب منها خوزيه أن تتوقف عن غنائها فورا ، ترد عليه — فى دلال — قائلة انها انما كانت تردد أفكارها بصوت عال ، وأنه لا يستطيع منعها من التفكير ! .. وتعود الى مواصلة غنائها ..

وشيئا فشيئا تتغلب عواطف الأومباشي على شعوره بالواجب ، فيلتفت الى كارمن ويسألها فى حرارة عما اذا كانت تعنى حقا ما تقوله اغنيتها ، وعما اذا كانت ستحبه فعلا .. ثم يسألها هل ستخلص له ، فتجيبه بأنها ستكون وفية له ، فيتجاهل واجبه ، وتغلبه الغواية .. فيفك قيدها !

ويخرج الضابط زونيجا من مركز الحرس ، فتهمس كارمن بتعليماتها الى الأومباشي ، ثم تنهض لتتظاهر بالسير معه الى السجن ، وهى تنظر الى الضابط فى اغراء ، وتردد مقطعا من احدى اغنياتها المثيرة .. ولكنها لا تلبث أن تدفع خوزيه بعيدا

عنها ، وترمى القيد الذى كان قد فكه لهـا قبل ذلك .. ثم تبتعد وهى تجرى بأقصى ما تستطيع من سرعة !

وبينما ينزل الستار على الفصل الأول ، يتقدم خوزيه من الضابط .. ويسلمه نفسه !

— ٢ —

● **ويدور** الفصل الثانى فى حانة (ليلاس باستيا) بأحد أطراف المدينة ، وهى الحانة التى تتخذها احدى عصابات التهريب مكانا لاجتماعاتها ..

وعندما يرتفع الستار ، نرى احتفالا مرحا يدور فى الحانة ، تغنى وترقص فيه فتيـــات الغجر وعلى رأســـهن كارمن وصديقتاها الحميمتان « فراسكيتا » و « مرسيدس » .. ونرى بين المحتفلين المرحين الضابط زونيجا .. ولكن سرعان ما ينتهى الحفل الصاخب ، اذ يعلن أن موعد اغلاق الحانة قد حان .. ويتبرع « زونيجا » باصطحاب كارمن وأصدقائهـا لمواصلة السهرة معـه ، ولكنهم يرفضون دعوته .. **فيقـوم بمحاولة أخيرة للظفر بابتسامة من شفتى كارمن ، ويقول لها ان الأومباشى الشاب صديقها قد أطلق سراحـه .. غير أنه لا يظفر منها بأكثر من كلمة ((حسن)) ، تقولهـــا له بلهجة قاسية ، وتتبعها بقولها : ((والآن أسعدتم مساء)) !**

وفى هذه اللحظة يسمع صوت غناء آت من بعيد ، ينبىء بقدوم مصارع الثيران المحبوب « اسكاميللو » ، الذى لا يلبث أن يدخل الحانة وهو يترنح ، ووراءه عدد من المعجبين به .. ويشرع اسكاميللو فور دخوله فى غناء اللحن الشهير « مصارع الثيران » ، الذى يصف فيه أولا بالتفصيل المباراة مع الثور ، ثم العيون السوداء الجميلة التى تنتظر البطل بعد انتصاره .. ويستطرد قائلا ان العينين السوداوين اللتين تجذبانه الآن ، هما عينا كارمن ! .. ثم يتجه اليها عارضا عليها حبه ، فتصده

كارمن بطريقة حاسمة ، لا تخلو فى الوقت نفسه من معنى التشجيع ، وتقول له انها الآن مشغولة بحب أحد الجنود !

ويغادر المصارع الحانة ، فيتبعه جميع من فيها باستثناء « كارمن » وصديقتيها « فراسكيتا » و « مرسيدس » ، وشابين من الغجر يدعيان « رامندادو » و « دنكيرو » ، يحترفان التهريب .. ويعرض المهربان على الفتيات الثلاث الانضمام اليهما فى عملية تهريب يدبرانها ويحتاجان فيها الى مساعدة بعض النساء ، فترحب « فراسكيتا » و « مرسيدس » بالاقتراح ، بينما ترفض كارمن ، فيندهش الآخرون ويلحون فى سؤالها عن السبب ؟

.. وتجيبهم كارمن بأنها عاشقة ! .. فيسخر الشابان من كلامها ، ويذكرانها بأن هذه ليست المرة الأولى التى تعشق فيها ، ثم يضيفان أنها خير من يستطيع التوفيق بين الحب والعمل ، ولكن كارمن تصر على موقفها .. ويسمع صوت « خوزيه » مقتربا من الحانة ، وهو يردد احدى أغنيات الجنود المرحة ، فتتخلص كارمن من الحاح أصدقائها بأن تعدهم بمحاولة اقناع الأومباشى بالانضمام الى عصابتهم ، ثم تتجه لترحب بحبيبها فى لهفة !

ويؤكد لها خوزيه – من ناحيته – حبه لها ، ولكنه يبدى غيرته عندما يعلم أن بعض الضباط قد قضوا السهرة فى الحانة ، وأن الفتيات قد رقصن معهم . غير أن كارمن تهدىء من ثورته اذ تعده بأن ترقص له وحده ، ثم تجلسه على أحد المقاعد ، وتتلوى أمامه فى رقصة جميلة مثيرة ..

ولكن صوت نفير آتيا من بعيد لا يلبث أن يقطع على خوزيه استمتاعه برقص فاتنته ، فيوقفها عن الرقص ويخبرها أن هذا النفير يؤذن بانسحاب فرقته ... ولكنها تتظاهر بعدم فهم ما يعنيه ، وتواصل رقصها وغناءها بمزيد من الحرارة

والاثارة ، فيعود خوزيه الى ايقافها قائلا انه مضطر أن يعود فورا الى المعسكر ..

وهنا تثور كارمن ، وتسخر منه فى غيظ ، وتوجه اليه شتائم لاذعة ، ثم تقذف بقبعته وسيفه على الأرض !.. ويحاول خوزيه استعطافها بتأكيد حبه لها ، ولكن توسلاته لا تثمر بأكثر من زيادة غضبها .. ويصر الأومباشى على استرضائها ، ويفلح أخيرا فى حملها على الجلوس . **ثم يخرج من سترته الوردة التى كانت قد قذفته بها ، ويغنى لها لحنا يشرح لها فيه كيف ان الوردة التى كانت تذكره بها دائما لم تفقد نضارتها قط طيلة الوقت الذى قضاه فى السجن !**

وبرغم ان كارمن تتأثر كثيرا لهذا الدليل القوى على هيامه بها ، الا انها تصر على التظاهر بعدم تصديق أنه يحبها ، قائلة انه لو كان حقا يهواها لتبعها الى الجبال البعيدة حيث الحرية التامة ، فلا ضباط هناك يتحتم عليه أن يطيع أوامرهم ، ولا قانون يخضعان له غير ارادتهما الطليقة !

ويكاد خوزيه أن ينقاد لعاطفته الملتهبة ، وينساق وراء اغراء ما تعرضه عليه كارمن ، فيأخذها بين ذراعيه ويهم بتقبيلها .. ولكنه يعود الى رشده فجأة فى اللحظة الأخيرة ، ويدرك مدى ما ينطوى عليه فراره من خدمة الجيش من نذالة وخسة ، فيدفع كارمن عنه ويتجه نحو باب الحانة ، مشيعا بصرخات كارمن وعويلها . ولكن قبل أن يبلغ الباب يسمع طرقا عليه ، ثم يدخل الضابط زونيجا ، الذى لا يكاد يلمحه حتى يصدر اليه أمره بمغادرة الحانة فورا !

.. واذ يرفض خوزيه — فى كبرياء — تنفيذ الأمر ، يمتشق زونيجا حسامه ، ويشتبك الرجلان فى قتال عنيف .. وتصرخ كارمن طالبة النجدة ، فيهرع الغجر الى الحانة

من كل صوب .. ويجرد المهربان « رافندادو » و « دنكيرو » الضـابط من سـلاحه ، ثم يرغمانه ـ تحت التهـديد بمسدسيهما ـ على الخروج من الحانة .. **وهكذا لا يبقى أمام خوزيه الا أن ينضم الى المهربين الغجر .. فينزل ستار الفصل الثانى على المجموعة وهى تردد أنشودة مرحة ، تتغنى بجمال الحرية !**

— ٣ —

● ويرتفع ستار الفصل الثالث عن بقعة نائية فى الجبال ، جمع فيها المهربون بضائعهم تمهيدا لنقلها عبر الحـدود .. وبينما المهربون ينشدون أغنية مشجعة ، نسمع بين خوزيه وكارمن حوارا نفهم منه أن أمورهما لا تسير على ما يرام ! .. فخوزيه يذكر كيف خيب آمال أمه بفراره من الخـدمة الى حياته الجديدة هذه ، **بينما تسخر كارمن من ضعفه ، وتتهكم عليه قائلة ان الأفضل له أن يعود الى أمـه فورا** .. ويغضب خوزيه لتلميحها الى افتراقهما ، ويحذرها من تكرار مثل هذا القول ، فتهتف كارمن ، وقد أحست بمدى غضبه : « أو تريد أن تقتلنى ؟ ولكن ما أهمية ذلك ؟! ان الأمر كله بيد القدر » !

وفى هذه الأثنـاء تكون الفتـاتان « فراسـكيتا » و « مرسيدس » قد جلستا الى احدى لفائف البضاعة المهربة ، و صفتا أوراق اللعب لقراءة ما يخبئه لهما الطالع .. وتقول فراسكيتا ـ فى مرح ـ ان الورق يتنبـأ لها بحبيب شاب جميل ، بينما تعلن مرسيدس أن الورق يعدها بحظ أحسن ، اذ يتنبأ لها بالزواج من شيخ مسن ، عريض الثراء ، يموت تاركا لها كل ثروته !

.. وتنضم كارمن الى الفتاتين ، وتصف بدورها أوراقها ، فتقرأ فيها نبوءات تناقض الطوالع السعيدة التى طربت لها صديقتاها ، فهى تقرر أنها ستموت أولا ، ثم يموت خوزيه !..

وتشرع فى ترديد لحن حزين يتحدث عن عدم جدوى محاولة الهروب من الموت !

ويقبل « دنكيرو » ليقول ان موعد اجتياز الحدود قد حان ، وان على خوزيه أن يبقى لحراسة ما لا يستطيع المهربون نقله من « البضاعة » فى رحلتهم الأولى . فيحمل كل مهرب حزمة من البضاعة ويخرجون ، بينما يصعد خوزيه الى قمة احدى الصخور القريبة لمراقبة الطريق .. وبعد فترة وجيزة تدخل « ميكائيلا » باحثة عن خوزيه ، وهى تحاول مداراة خوفها الشديد بالغناء والابتهال الى الله !.. ولكن ما ان يقع نظرها على خوزيه ، حتى تراه يطلق رصاصة نحوها ، فتفر مذعورة ..

.. غير أن خوزيه لا يكون قد أطلق النار عليها ، بل على مصارع الثيران « اسكاميللو » الذى رآه يتسلق الجبل قادما نحو مخبأ المهربين .. وعند اقتراب اسكاميللو ، يأمره خوزيه بالوقوف فى مكانه ، فهو لا يعرفه الا بالاسم !.. ولكن ما ان يقدم اليه اسكاميللو نفسه حتى يرحب به ، ويخبره أنه قد خاطر بحياته بالمجىء الى هذه البقعة الموحشة . فيجيبه اسكاميللو بأن الحب هو الذى أكسبه الشجاعة ، ثم ينبئه بأنه قد جاء لرؤية كارمن !

.. وعندئذ يثور خوزيه ، ويسأله عما اذا كان لا يدرى أن على الرجل الذى يريد أخذ احدى فتيات الغجر أن يكون مستعدا لدفع ثمن رغبته هذه بحد الخنجر ؟ !.. فيدرك اسكاميللو أن محدثه انما هو حبيب كارمن ، التى تكون قد أتت فى هذه اللحظة على صوت شجارهما ، وأمسكت بذراعه . وسرعان ما يدخل باقى الغجر وراء كارمن ، ويفرقون المتبارزين !

ثم يطلب « دنكيرو » من مصارع الثيران الرحيل ،

فيتمهل « اسكاميللو » ليدعو الجميع الى مشاهدة حفلته القادمة فى (اشبيلية) ، واعدا بأن يقدم لهم عرضا رائعا .. ويقول وهو يوجه نظرات ذات مغزى الى كارمن : « ان كل من يحبنى سيحضر هذه الحفلة » . فينقض عليه خوزيه ، ولكن « دنكيرو » و « رامندادو » يمسكان به ..

وبعد انصراف اسكاميللو ، وبينما المهربون يتأهبون للعودة الى عملهم ، يعثر أحدهم على « ميكاييلا » مختبئة بين الصخور ، فيندهش خوزيه لرؤيتها ، ويسألها عما جاء بها الى هذا المكان .. فتخبره بأن أمه قد أوفدتها لتطلب منه أن يرأف بحالها ، وأن يعود الى بيته . **واذ ذاك تنصحه كارمن ساخرة بأن يعود الى أمه ، فيتولاه الغضب ويصر على ألا يتركها !.. وهنا تضطر ميكاييلا الى اخباره بأن أمه فى حالة احتضار ، فيغير رأيه على الفور ، ويتأهب للعودة بصحبتها ..** ويسمع من بعيد صوت اسكاميللو ، وتهم كارمن بالتوجه اليه ، فيلتفت اليها خوزيه ويلقيها على الأرض ، ثم يواصل سيره .. بينما يسدل الستار .

— ٤ —

● **ويدور** الفصل الأخير فى يوم حفلة مصارعة الثيران ، فيرتفع الستار عن مدخل حلبة المصارعة حيث تتزاحم البائعات المتجولات ، والسقاة ، والجنود ، وجمهور المتفرجات والمتفرجين ، الذين أخذوا ينتظرون دخول موكب المصارعين .

ثم يبدأ الموكب ، الذى يسير فى مقدمته مساعدو المصارع ومختلف معاونيه ، ويسير فى نهايته المصارع نفسه « اسكاميللو » . وقبل أن يدخل اسكاميللو الحلبة ، يقول لكارمن انها اذا كانت تحبه ، فسوف تكون فخورة به اليوم ، فتجيبه قائلة انها تحبه بكل تأكيد .. ثم تردف : « وسحقا لى ان كنت قد أحببت من قبل أحدا كما أحبك ! »

وما أن ينصرف اسكاميللو حتى تسرع فراسكيتا ومرسيدس الى كارمن لتحذرانها من أن خوزيه مختبىء بين المتفرجين ، فتجيب كارمن بأنها لا تخشاه .. ثم تستطرد قائلة انها سوف تنتظره فى مكانها لتتحدث اليه !.. ويتدفق الجمهور نحو الحلبة ، وتتبعه الفتاتان تاركتين كارمن وحدها .. **وفجأة يدخل خوزيه ، فتحييه كارمن فى برود ، ثم تقول له ان أصدقاءها قد حذروها من أنه ينوى قتلها ، ولكنها لا تخافه !..** فيؤكد لها خوزيه أنه لم يأت الا لكى يتوسل اليها أن تذهب معه . ولكن كارمن تجيبه ــ فى ضيق ــ بأن كل شىء قد انتهى بينهما !.. وكلما ازداد خوزيه حرارة فى توسلاته ، أمعنت كارمن فى سخريتها منه .. الى أن تصل اليهما أصوات الجماهير وهى تحيى المصارع ، فتهم كارمن بالدخول الى الحلبة ، غير أن خوزيه يعترض طريقها ويسألها عما اذا كانت تحب المصارع ؟.. **وتجيبه ــ فى تحد ــ بأنها هائمة به فعلا .. فيعود خوزيه الى سؤالها للمرة الأخيرة أن تذهب معه ، ولكنها تصيح ــ فى غضب ــ قائلة ان عليه اما أن يفسح لها الطريق ، أو يقتلها !**

وتسمع أصوات تهليل الجماهير لانتصار المصارع ، فتنتزع كارمن من اصبعها خاتما كان خوزيه قد أعطاها اياه ، وتقذف به بعيدا ، ثم تحاول التملص من الشاب والدخول الى الحلبة .. فيفقد هذا وعيه ، وتعميه الغيرة المجنونة ، فيستل خنجره بسرعة ، ويغمده فى صدرها !

.. وعندما تخرج الجماهير من الحلبة ، ترى خوزيه راكعا على الأرض ، بجوار جثة الفتاة .. فيصرخ فى الواقفين حوله ــ بصوت يائس ــ أن يقبضوا عليه ، لأنه هو الذى قتل محبوبته .. كارمن !

ويسدل الستار .

ليلة.. من ليالى البلقان!

للروائى الأسبانى الأشهر : بلاسكو إيبانيز



A SERBIAN NIGHT : BY BLASCO IBANEZ

ترجمة : حلمى مراد

هذه القصة .. وهذا الكاتب

عزيزى القارىء ...

فى هذه القصة الرائعة ، يصور الروائى الأسبانى الأشهر ((بلاسكو ايبانيز)) (١٨٦٧ - ١٩٢٨) ليلتين من ليالى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) : ليلة فى أحد فنادق باريس ، تجتمع فيها المفارقة الصارخة بين اطفاء الأنوار ، وبطاريات الأضواء الكاشفة التى تذرع السماء بحثا عن طائرات الأعداء فى الخارج .. وبين اللهو الصاخب فى داخل الفندق ، حيث يحاول المجندون فى ليلة أجازتهم نسيان أهوال الحرب ، بين الخمر ، والموسيقى ، وأحضان غانيات العاصمة الفرنسية ..

ومن خلال هذا الاطار ، يروى الأديب الأسبانى القدير ليلة أخرى ، ليلة رهيبة من ليالى الحرب فى جبهة الصرب ، (أحد أقاليم يوغوسلافيا الآن) ، خلال تلك الحرب العالمية الأولى ، التى كانت الصرب مسرح الشرارة الأولى التى أشعلتها ، حين اغتال شاب وطنى صربى ولى عهد الامبراطورية النمسوية ، التى كانت تحتل بلاده وتسومها الهوان ، فكان ذلك الحادث الذى وقع فى بلدة (سراييفو) سببا مباشرا فى نشوب الحرب التى اصطلى العالم بنارها أكثر من أربع سنوات .

فتعال معى نقرأ قصة ((ايبانيز)) الرائعة عن تينك الليلتين :

— ١ —

● **الحادية عشرة** مساء ، وقد أغلقت مسارح باريس أبوابها قبل نصف ساعة ، ولفظت المطاعم والمقاهى روادها الى الطريق ..

.. ووقفت جماعتنا مترددة عند مدخل الشارع الكبير ، بينما كانت الجموع المنصرفة من أماكن اللهو تمر بنا ثم تختفى ظلالها كالأشباح .. ومصابيح الشارع القليلة المتناثرة تلقى ضوءها المحجب الشاحب ، فلا يلبث أن تبتلعه الظلمات ..

والنجوم التى تتخلل صفحة السماء السوداء تخالسنا نظرات خاطفة .. لقد كان الجو يوما خاليا فى الليل الا من النجوم ، أما الآن ، فان الانبثاق الفجائى لرقعة الأنوار الكاشفة ـ بين حين وحين ـ يظهر بوضوح « منطادا » يبدو صغيرا ، فى حجم السيجار !

وشعرنا بميل الى اطالة السهر ، وكنا أربعة : كاتب فرنسى ، وضابطان صربيان ، وأنا . ترى أين نذهب فى باريس هذه ، مدينة النور ، الحالكة الظلام ، التى أوصدت جميع أبوابها ؟ اقترح واحد من الصربيين اسم فندق فاخر ، تظل قاعاته مفتوحة لاستقبال ضيوفه طوال الليل . وكان جميع الراغبين فى السهر قد اعتادوا أن يدلفوا اليه كما لو كان بيتهم .. والاخوة فى السلاح ـ من ضباط مختلف الدول ـ يتناقلون اسمه كلما أتوا الى باريس لقضاء بضعة أيام .

● **واتجهنا اليه ..**

كانت القاعة متألقة الأنوار ، الى حد شعرنا معه بعظم المفارقة ، بالقياس الى حلكة الظلام فى الخارج . وبدا المكان ـ بمراياه العديدة ، وهى تعكس أضواء العناقيد المتلألئة من الثريات ـ أشبه بجوف فنار ضخم . وأحسست أننا عدنا الى الوراء عامين : **نساء ، وخمر ، وكمان تتأوه أوتاره بلحن من ألحان الزنوج الراقصة ، فكانت كلها صورا من الأيام الخوالى ـ أيام ما قبل الحرب ـ فيما عدا أزياء الرجال ، فان أحدا منهم لم يكن يرتدى ثياب السهرة** ، بل كان الجميع ـ من فرنسيين ، وبلجيكيين ، وانجليز ، وروس ، وصربيين ـ يرتدون الثياب العسكرية ، متسخة ممزقة . وكان عازفو الكمان من الجنود الانجليز الذين حلوا مكان فرقة « الغجر » ذوى السترات الحمراء ، يتقبلون تصفيق الجمهور بابتسامات

مطفأة ، باردة كالرخام .. والنسوة يشرن الى أحدهم متهامسات باسم أبيه « لورد .. » المشهور بذريته وثروته .. ثم راح الجنود جميعا يغنون أغنيتهم المفضلة : « هيا نمرح أيها الرفاق ... فغدا سوف نموت !» ..

كان هؤلاء الشجعان الذين حمل كل منهم حياته على كفيه ، يعبون من الحياة جرعات كبيرة ، ضاحكين ، مغنين ، لاهين ، **بتلك الحماسة المستهترة المأثورة عن البحارة الذين يقضون الليلة على الشاطىء ـ كأسعد ما يكونون ـ ثم يعودون مع الفجر الى البحر .. والى مواجهة العواصف من جديد !**

* * *

● **وكان** الضابطان الصربيان فى مقتبل العمر ، باديى الغبطة بالفرصة المواتية التى حملتهما الى باريس ، مدينة الأحلام التى طالما ملأت خيالهما ، طوال أعوامهما الرتيبة المملة فى حامية احدى بقاع الريف .

.. وكان كلاهما يتقن رواية القصة ، الموهبة التى تبدو طبيعية فى بلد يكاد كل من فيه يكونون شعراء !.. ولقد كانت هذه المكانة التى يحتلها الشعر فى حياة هؤلاء القوم من الرعاة والمحاربين ، مثار دهشة الشاعر الفرنسى « لامارتين » حينما مر ـ منذ ثلاثة أرباع قرن ـ بولاية الصرب هذه .. **حيث كانت أغلبية الأهلين تجهل مبادىء القراءة والكتابة ، مما جعل الأفكار والذكريات تنتقل من جيل الى جيل بطريق الاشعار المحفوظة .. وحيث الرعاة يقومون بدور « المؤرخين » الوطنيين ، فيضيفون بأغانيهم الجديدة فصولا متوالية الى ملحمة الوطنية الصربية !**

● **ومضى** الضابطان يجرعان كؤوس الشمبانيا ، ويذكران مآسى بلادهما فى الشهور الأخيرة : تقهقر الجيش المهزوم .. الكفاح الرهيب ضد البرد والجوع .. المعارك القاسية فوق الثلوج ، بنسبة جندى واحد مقابل عشرة من الأعداء !.. ثم الفرار المروع لحشود هائلة من الكائنات البشرية والحيوانات ، فى اضطراب وفزع ، تحت وابل من نيران المدافع الرشاشة والبنادق التى راحت تحصد مؤخرة الطابور .. ثم القرى المحترقة ، وجموع الضالين والمشردين ، والجرحى الذين يصيحون وأجسادهم تتلظى وسط النيران .. والنسوة المشوهات تحوم فوق رؤوسهن الغربان .. **وفرار الملك العجوز بطرس ـ الكسيح من الروماتيزم ـ عبر الوهاد البيض ، متكئا على عصا من الخشب ، محدودب الظهر صامتا ، يتحدى القدر .. كواحد من ملوك شكسبير !**

كنت وأنا أنصت للضابطين وهما يتحدثان ، أراقبهما على مهل : كان مظهرهما ينطق بأنهما من الفتيان العنيدين الصلاب ، كل منهما نحيف البنية ولكنه قوى العضلات .. لكليهما أنف أقنى كمنقار النسر ، وشوارب مدببة الأطراف ، تطل من تحت قبعتيهما خصلات متمردة من الشعر .. وبالاختصار ، كانت لكليهما هيئة الفنان الذى اعتادت فتيات الجيل الماضى أن يشغفن به ويتدلهن ، لا يختلفان عنه الا فى ردائهما « الكاكى » ، وفى مظهر الهدوء والشجاعة الذى يتميز به عادة أمثالهم من الذين يجابهون الموت على الدوام !

ومضيا يرويان ويرويان الكثير مما شاهداه ، وعاشاه ، وكأنهما يعيدان سرد مآثر بطل الصرب الشجاع « ماركو كريلوفتش » الذى حارب رجال العصابات المعروفين باسم « خفافيش الغابات » وهو غير مسلح الا بثعبان !.. وطفقت أتأمل الضابطين ـ جليسى فى هذا الفندق الباريسى ـ وأنا

أهمس لنفسى : « ما أقرب العهد الذى كانا فيه فى جحيم المعركة ، يعيشان تلك الحياة الوحشية التى لا ترحم ، حياة الانسانية فى طور طفولتها البدائية القاسية ! » .

ورحل صديقنا الفرنسى ، بينما كان أحد الصربيين قد بدأ ينشغل عن سرد قصصه بمخالسة النظر الى منضدة مجاورة ، صوب منها نحوه بريق عينين تتخللهما ظلال ، يعانقها ظل قبعة عريضة من الريش الحريرى لأفعوان أبيض **.. لم يعد خافيا أن تينك العينين قد اقتنصتا منا انتباه الضابط .. وفعلا لم تمض برهة حتى نهض ــ كما لو كان مقودا بخالجة طاغية ، واغراء لا يقاوم ــ لينتقل من مائدتنا الى المائدة المجاورة .. حيث لم يلبث الا قليلا ثم اختفى .. ومعه اختفت القبعة ، وريش الأفعوان !**

وبقيت وحدى مع أصغر الضابطين ــ وكان أقلهما كلاما ــ فاذا هو يجرع قدحا من الخمر ، وهو ينظر الى ساعة حائط فوق « البار » ، ثم ينظر الى نظرة من تلك التى تسبق دائما الافضاء بشىء ذى خطر .. واستطعت بسهولة أن أحزر مقدار حاجته الى أن يفرغ فى أذنى ما يرهقه من ذكريات أليمة .. ومرة أخرى رفع بصره الى الساعة .. وكانت قد بلغت الواحدة !

.. وفجأة أنهى صمته المحير ، وقد أخذ يصوغه فى كلمات :

« كان ذلك فى مثل هذا الوقت .. منذ أربعة شهور » .

وفيما هو يروى قصته ، رأيت بخيالى كل أحداثها : تلك الليلة الحالكة ، والوادى يكسوه الجليد ، والجبال البيضاء تغطيها أشجار الصنوبر والزان ، وقد أخذت تتساقط من أغصانها براعمها الشبيهة بالقطن المندوف .. ورأيت القرية المهدمة ، وفى حمى اطلالها جنود الفرقة الصربية ــ الباقون ــ

يولون الأدبار ووجوههم الى (الادرياتيك) .. وكان محدثى هو المنوط بقيادة مؤخرة ذلك الطابور . ذلك الجمع من الرجال الذى كان يوما « فرقة » فأمسى زحاما مضطربا عجاجا بالخلق .. وخاصة بعد أن اختلطت به جموع القرويين الذاهلين — من فرط الخوف والألم — يتحركون كالآلات الصماء ، ويساقون كالماشـية .. **والنسوة بينهم يرسلن أنينـا كالخوار ، وهن يجرجرن جمهرة من الأطفال .. ونسوة أخريات ، سمراوات البشرة ، طويلات القـامة ، قويات العضلات ، كن يسرن فى صمت مفجع .. وكلمـا مشين خطوات ، انحنين على جثث الموتى يجردنهم من بنادقهم ، ومن أحزمة الذخيرة الملفوفة على بطونهم !**

.. والظلمة حالكة ، لا يلونها الا برق أحمر خاطف ، هو بريق القنابل يتوامض من بين الأطلال والأشلاء .. يجاوبه من أعماق الليل دويها المتفجر المتتابع .. والهواء الأسود المنعقد فى سماء الوادى تطن فيه قذائف الرصاص — حشرات الليل غير المنظورة — ثم يوشك الصبح أن يبزغ ، وفى ركابه الهجوم الساحق من هذا العدو الذى يربض لهم فى الظلام ، والذى لم يكونوا يعلمون أهو من الألمان ، أم النمسويين ، أم البلغار ، أم الأتراك ؟.. فقد كان يواجه التعساء أعداء كثيرون !

واستطرد الصربى : « لم يبق أمامنـا غير أن ننسحب ، تاركين وراءنا كل من يعوقنا .. فقد كان علينا أن نبلغ الجبال قبل مطلع النهـار » .. وكانت الطوابير الطويلة من النسوة والأطفال والمسنين — تخالطهم قطعان الحيوانات — قد ابتلعها كلها الظلام ، ولم يبق فى القـرية الا ذوو الأجسام القوية من الرجال ، الذين تخلفوا لحماية المؤخرة ، محتمين بدورهم فى الاطلال .. ثم جاء دور فريق منهم فى الانسحاب ، فوثب الى ذهن الضابط فجأة خاطر قاس ملح : **« الجرحى ! ماذا يكون**

من أمرهم ؟ كان هناك أكثر من خمسين « كائنا حيا » منطرحين على القش فى مخزن للغلال ثقبت القنابل سقفه ، يتململون فى سعير الألم والسخط . كان بعضهم قد مضت على اصابته أيام ، تحامل فى خلالها على نفسه مسافات ، حتى بلغ هذه القرية .. وآخرون أصيبوا فى تلك الليلة ذاتها فضمدوا جراحهم النازفة بضمادات مؤقتة .. وغير هؤلاء وأولئك نسوة اصابتهن شظايا القذائف المتفجرة ... الخ .

دخل الضابط المخزن ، حيث فاحت رائحة اللحم العفن ، والدماء الجافة ، والثياب القذرة ، والأنفاس النتنة .. فلم يكد يفتح فمه حتى اشرأبت نحوه أعناق من كانت بهم بقية من جهد ، وأقبل بعضهم يزحفون نحوه على ضوء مصباح البترول الوحيد الذى فى المكان .. وانقطعت التأوهات ، فساد الجو صمت اشتركت فى ايجاده حدة المفاجأة ، والرعب — كما لو أن أولئك المشرفين على الموت خشوا شيئا أفظع من الموت ! — ولم يكد الضابط ينهى اليهم نبأ مصيرهم المحتوم ، فيعلمون أنه لم يعد بد من تركهم لرحمة الأعداء ، حتى **هبوا جميعا قزعين .. وحاولوا النهوض .. ولكن أكثرهم سقط من فرط الأعياء .. ولم يلبث أن غشى المكان ضجيج من التوسلات اليائسة ، والصلوات الحارة** ، فقد توجه الكل الى قائدهم — ومن كان خلفه من جنده — مستعطفين : « أيها الرفاق . لا تتركونا . باسم المسيح لا تتركونا » . لكنهم لم يلبثوا أن أدركوا أن التخلى عنهم قد بات ضرورة حتمية ، فبدت عليهم سمات الاستسلام لمصيرهم ... ولكن أى مصير أن يقعوا فى أيدى البلغار أو الأتراك ، أعدائهم لقرون خلت !؟.. وأضافت عيونهم ما لم تجرؤ عليه شفاههم .. فان انتقام البلقانيين كان شيئا يخشى أكثر من الموت !

« أيها الأخ .. أيها الأخ » .. وحزر الضابط ما كان يصطرع وراء هذه الصيحات من رغبات ، فأدار عينيه بعيدا ، وسألهم : « أو تريدونني ان ؟ » .. وقبل أن يتم عبارته تحركت كل الرؤوس بعلامة الموافقة : **ان واجبه ألا يترك وراءه صربيا واحدا .. حيا .. وما غرابة هذا ؟ أو لم يكن هو ليطلب نفس الشيء لو كان مكانهم ؟**

وكانت ندرة الذخيرة لدى الجيش قد جعلت الجنود يحتفظون بسلاحهم فى حرص ولهفة ، فبدأ بعض الجرحى يشرع فى انجاز مهمته الأخيرة : الاجهاز على نفسه ، مستعملا مهماز بندقيته !.. لكن المهمة كانت قاسية ، غليظة ، فلم ينجحوا فى أكثر من احداث اصابات غير قاتلة ، وسيول من الدماء جديدة ، وحشرجات لا تحتمل ..!

وأدرك الضابط الواجب الذى صار يواجهه !.. وكان الجرحى قد أخذوا يجرجرون أجسادهم ، مقتربين منه ، تجذبهم نحوه رتبته التى جعلت من الموت على يديه شرفا أخيرا .. كما تجذبهم خفة حركته ، التى ستجعل الموت من يده أقل ايلاما !.. وجرد الضابط سيفه راغما ..

« هأنذا أيها الأخ .. هأنذا .. »

وبحد سيفه المشهر فى وجوههم ، راح يهوى على رقابهم .. جاهدا أن يقطع فى كل منها شريان الحياة بضربة واحدة ، ما أمكن : « تاك .. تاك .. تاك .. تاك .. الخ » ــ نطق بها محدثى فى عصبية ، مستعيدا مسرح الرعب أمام ناظرى ..

.. وتقاطروا عليه ، زاحفين على بطونهم ، منسلين من الأركان المظلمة ــ كالديدان ــ كى يترامو تحت سيفه . وكان فى البداية يحاول جهده أن يدير رأسه بعيدا ، وقد امتلأت عيناه بالدموع ، لكيلا يرى ما تفعل يمينه !.. لكن ضعفه

ضاعف من آلامه . صار لا يتقن الاجهاز على رجاله بضربة واحدة ، ومن ثم يجد نفسه مضطرا الى اعادة الكرة ، واطالة عذاب الجريح قبل الاطاحة برأسه .. فتمالك أخيرا نفسه ، وبيد ثابتة وقلب متجلد اندفع يضرب ذات اليمين وذات اليسار : « تاك .. تاك .. تاك .. تاك .. » .. والصيحات تتزاحم على سمعه : « أنا أيها الأخ !.. أنا ! » .

.. كانوا يتنافسون على السبق كما لو خشوا أن يدركهم الأعداء قبل أن تتم هذه المذبحة « الأخوية » !.. وكانوا قد خبروا أنسب الأوضاع لتلقى الضربة القاضية ، فكان كل منهم يدير رأسه الى جانبه ، حتى تتصلب رقبته ويصير شريانها متوترا ، مهيئا للبتر !

« أنا أيها الأخ .. أنا ! » .. وبينما سيل الدماء يتدفق أنهارا ، كانت أجسادهم تتساقط ، واحدا فوق الآخر ، وتفرغ ما فيها من دم الحياة فى بطء ، كبرميل النبيذ الأحمر ..!

* * *

وكانت قاعة الفندق الباريسى قد بدأت تفرغ من زائريها .. والنساء يتقاطرن منها الى الخارج ، مستندات الى أذرع العسكريين ، تاركات وراءهن نفحة من رائحة العطر والمساحيق .. وآلات الكمان فى أيدى الجنود البريطانيين تزفر زفراتها الأخيرة ، بين عاصفة من الضحك تنم عن قلوب خلية !

.. بينما كان محدثى الصربى ما يزال ممسكا فى يده سكينا صفراء يضرب بها المائدة بحركة آلية .. فى هيئة من أعجزته الذكرى عن النسيان ، ولن تفتا تعجزه ، وتزعجه : « تاك .. تاك .. تاك ! » .

من قصص انحلال الإمبراطورية الرومانية

الإمبراطورة الخاطئة

"ميسالين".. زوجة الإمبراطور "كلوديوس"



بقلم : ابراهيم المصرى

« تقع حوادث هذه القصة أيام انحطاط الرومان ، وتمثل ما كان يجرى اذ ذاك فى قصور حكام روما ، وما كانت عليه الامبراطورة « ميسالين » نفسها من بغى وفجور . كما تمثل القصة آلام شعب ، ويقظة أمة » .

— ١ —

◉ فى عام ٤٨ الميلادى ، وفى حى شعبى من أحياء روما ، وفى زقاق مظلم قذر مستطيل ، كان يرى الناظر حانة صغيرة كئيبة المظهر ، متصدعة البنيان ، يرقى اليها روادها من سلم خشبى علق على سوره مصباح خافت ، تتراقص أضواؤه منعكسة على جدران البيوت المحدودبة المتلاصقة ، فتبدو كأنها أشباح !

وكانت الحانة غاصة فى تلك الليلة بجمهرة كبيرة من العمال ، والصناع ، وقطاع الطرق ، وبنات الهوى . وكانت صيحاتهم تقصف فى الجو كالرعد ، وضحكاتهم تهدر فى الظلمة كالسيل ، وشهواتهم تنطلق انطلاقا مروعا ، كأنما هى وحوش ضارية أطلقت من عقالها ومضت تمرح فى أجمة كثيفة ، بعيدة عن العالم .

فالعمال كانوا يعاقرون الخمر ويرقصون ، وقطاع الطرق يلعبون الميسر ويتشاتمون ، وبنات الهوى يتسللن بين الرجال محلولات الشعر انصاف عرايا ، يقدح من أعينهن النهمة المكحلة شرر الطمع والاغراء !

وفجأة ، فتح الباب الكبير ، ودخلت منه امرأة . امرأة فى نحو الخامسة والعشرين من عمرها ، مديدة القامة فى

شموخ ، ناهدة الصدر فى عزة ، وطيدة البدن فى ثبات وقوة ، يستر وجهها وشاح اسود ، ويمسك بذراعها شاب مفتول العضل رائع الجمال .

واتجهت المرأة صوب احدى الموائد وطلبت خمرا . فجاءها صاحب الحانة بكوبين من النبيذ ، فمالت الى رفيقها وهى تضحك وناولته كوبه ، ثم تجرعت ما فى كوبها دفعة واحدة ، بعد أن نزعت وشاحها الأسود ، وحدقت فى جرأة الى الحاضرين .

والتفت الجميع اليها ، فراعهم حسنها الباهر ، وعطرها الغامر ، وكبرها الساخر المستهتر .. فانعقدت ألسنتهم ، وسكن ضجيجهم ، وراحوا يتلامحون ويتهامسون .

وكانت المرأة سوداء الشعر ، عالية الجبهة ، واسعة الحدقتين ، مستقيمة الأنف ، ترف أهدابها الطويلة على خديها الناضرين فيومض وجهها الساحر ، وينسكب عليه فيض من الرواء والعظمة يخطف البصر ويأخذ بمجامع الألباب .

ونهضت بغتة وقد احتوتها نزوة طارئة ، ولعبت برأسها نشوة الخمر ، فارتمت على أحد العمال وجذبته ، وخاصرته ، ثم دفعته الى وسط الحلبة وأهابت به أن يرقص ، وهى تتفرس فيه وتتأمل تقاطيع وجهه الزاخرة بالرجولة ، وتضمه وتوشك أن تقبله !

وراق الحاضرين هذا المشهد فأفسحوا لهما المجال ، فانطلقا يرقصان فى عنف مخبول ، موقع على هتاف الحناجر ، وتصفيق الأيدى ، ورنين الكئوس ..

ولما أحست المرأة بالتعب ، وانتابها من فرط الرقص شبه دوار ، أرسلت صرخة منتشية ثم قبلت الرجل فى فمه قبلة

طويلة ، ونفضته عنها وارتمت على مقعد .. فضج لها الجمع بالهتاف والتهليل .

وكان صاحبها الشاب الجميل المفتول العضل ينظر اليها فى كمد وسكون . فلما أقبلت بعد لحظة عليه غمغم فى أذنها وهو يرتعش :

— ألا نرحل ؟

فاستضحكت وقالت وهى تلاطف خده بأناملها :

— عندما يطلع الفجر !

وانفلتت كالضوء المارق وجلست على ركبة أحد قطاع الطرق ، ثم اختطفت كوبه الملىء واجترعت ما فيه عن آخره !

وعندئذ ثارت ثائرة غانية كهلة كانت بقربه . فدنت منها وربتت على كتفها وقالت وهى تصعد فيها بصرها وتتحداها :

— هذا الرجل هو لى . فدعيه وشأنه أيتها الدخيلة ، والا ..

فقهقهت المرأة قهقهة مدوية ، ثم عادت فاختطفت الكوب وقذفت به وجه غريمتها .. فجن جنون الغانية وانقضت عليها ، فركلتها المرأة فى بطنها . فأسرع قاطع الطريق لنجدة صديقته ، وأسرع الحاضرون لطرد الدخيلين !

وفى تلك اللحظة فتح الباب فى عنف ، ودخل منه رهط من الجنود .. فتراجعت الغانية ، وجمد كل من فى الحانة .. بينما خرجت المرأة مرفوعة الرأس ، عارية الوجه ، باسمة الثغر ، يتبعها الشاب الجميل وهو يعض على شفتيه حنقا ، ويختلج حتى ليوشك أن يبكى !

وما أن اختفت ، حتى صاح كل من الحاضرين بالآخر :

— من .. من تكون هذه المرأة ؟

فوثب من احدى زوايا الحانة رجل طاعن فى السن ، أبيض اللحية ، جاحظ العينين ، محدودب الظهر ، وقال وهو يقطب

حاجبيه وينتفض :

ـ ألا تعرفونها ؟

فأجاب الكل متهافتين :

ـ كلا .. لم نبصرها قط قبل الآن !

فابتسم الشيخ ابتسامة مكمدة وصاح :

ـ انها ((ميسالين)) !

فأجفل الجميع ثم هتفوا :

ـ الامبراطورة ؟

فهز الشيخ رأسه وغمغم :

ـ هى بعينها . لم تظهر فى الملعب الشعبى الكبير غير مرة واحدة ، ولكننى رأيتها فيه . رأيتها تشهد حفلة مصارعة . كنت مع ولدى ، ولدى الوحيد « أوكتافيوس » . ولدى الذى يعجب بها ويقدسها ويبذل قصاراه فى التدريب على الحركات الرياضية الخارقة كى يصبح فى يوم من الأيام مصارعا ممتازا خليقا بأن يظفر منها بلقب البطولة فى سباق العربات ومصارعة الوحوش ومنازلة الجبابرة من أبطال روما . أما أنا فلا أحبها ، بل أكرهها من صميم قلبى . **انها هى التى دست السم لفينيسيوس عضو مجلس الشيوخ ، لأنه تمنع عليها وأبى أن يكون عشيقها !.. وهى التى قتلت ((كاتونيوس)) رئيس البوليس لأنه اجترأ على انتقاد سلوكها .. وهى التى نفت الفيلسوف ((سنيكا)) الى جزيرة كورسكا ، لأنه ثار فى وجهها ولم يستطع أن يغض الطرف عن آثامها وفجورها !.. انها عار روما !..** وما المحرمات التى ترتكبها الا لعنات تصبها الآلهة على هذا الوطن العزيز الذى لا يحفل بمصيره الحكام المترفون ، ولا الموظفون النفعيون ، ولا أنتم أيها الشعب العابث المستسلم المتواكل !

وتوقف الشيخ لحظة وهو يلهث ، ثم استطرد صارخا

— أرأيتم ؟ أرأيتم ذلك الشاب الذى كان فى صحبتها ؟ **انه ((سيليوس)) الشريف ، عشيقها المفضل ! عشيقها الذى تريد أن تجعل منه ((زوجها الثانى)) بعد الامبراطور ! لماذا ،** لماذا تنظرون الى هكذا ؟ تلك هى الحقيقة . ان ((ميسالين)) على وشك أن تستصدر من مجلس الشيوخ اذنا شرعيا يخول لها حق الزواج من سيليوس وهى فى عصمة الامبراطور !.. **انها تريد أن تبيح للنساء حق التزوج بأكثر من رجل !.. انها لأفجر الفاجرات !**

وشخص الى الجمع الذاهل المبهوت ، وتمتم وهو يرفع ذراعيه الى السماء :

— متى ، متى تنكشف الغمة عن هذا الوطن ؟.. ومن ، من يمكن أن يكون ذلك الباسل الشجاع الذى فى مقدوره أن ينقذ روما بضربة سيف ، أو طعنة خنجر ؟

فصاح أحد العمال :

— لقد أسرفت أيها الشيخ . انها قيصرتنا على كل حال . وأكبر ظنى أنك تلعنها لأنك مسيحى !

فرفع الشيخ رأسه وقال :

— لست مسيحيا ولا وثنيا . أنا من أصل اغريقى . وحياتى الطويلة انقضت فى دراسة الحكمة والفلسفة . ولقد علمتنى الفلسفة أن هذا العالم وحدة ، وانه لا بد أن يكون محكوما بسلطان اله واحد . فأنا أعبد هذا الاله الأحد ، وأنا فى سبيل وطنى أستنزل لعنته الأبدية على ميسالين !

فقال له العامل ملوحا بقبضته :

— احذر انتقامها ولا تتهور !

فضحك الشيخ وقال :

— أنا فيلسوف وعراف ، وهى تقرب العرافين لأنها تخشى الآلهة ! **وداعا . لقد كشفت لكم عن الحقائق لأبذر فى نفوسكم**

بذور الكرامة والتمرد ! هذا واجبى ! طابت ليلتكم . أنا ذاهب لملاقاة ولدى ..

وتوكأ الشيخ على عصاه وانصرف وهم يتبعونه النظر ، وقد تناسوا أقداحهم ، وتناسوا الغانيات ، وشرعوا يفكرون ويتهامسون !

— ٢ —

وكانت ميسالين التى خرجت من الحانة فى صحبة سيليوس ورهط الجند من حرسها ، تريد أن تروح عن نفسها وتسهر فى المدينة حتى الصباح ، **فاقتادت عشيقها الى احدى الحدائق العامة ، وجلست بجواره تحت خميلة كبيرة ، ومضت تداعبه وتلاطفه ، وتمنيه بتاج روما بعد أن تستصدر اذن الزواج الثانى من مجلس الشيوخ !**

وكان الشاب ساهما شاردا ، يخنق فى صدره لوعته ، ويحاول أن يكبح شعوره بالحنق والاستنكار ما استطاع . بيد أن مرجل غضبه انفجر بالرغم منه ، فصاح بميسالين :

ـ لست كلبا يجر بمقود ، ويلقى اليه فتات المائدة . اما أن أكون السيد ، واما أن أرحل !

وهم بالنهوض ، فتركته ينهض . ولكنه عاد فجلس . فنظرت اليه من خلال أهدابها الطويلة ، وقالت فى هدوء ملكى وهى تبتسم :

ـ على هذا الشرط قبلت أن تكون اليوم عشيقى وغدا زوجى . نعم . أنا أقدرك قدرك . ولقد اصطفيتك من دون الرجال جميعا حبيبا لقلبى . ولكن ما حيلتى فى طباعى ، فى ميولى وأهوائى ؟ أنا امرأة يعز عليها ألا تستمتع بكل شىء ، وألا تفوز بكل شىء ! ان حب النزوات فى دمى ، واغراء الملذات هو مادة حياتى ! أنا امبراطورة روما ، ولكننى سأموت يوما ..

فهل يرضيك أن تموت أعظم امرأة فى العالم وفى قلبها حسرة واحدة على لذة كانت تطلبها فحرمت نفسها منها ، عن طواعية ورضاء ؟ تلك حماقة ياصاحبي ، ومن العار على أن أرتكبها !
فثب الى رشدك ولا تنقض عهدنا . دعنى ملك أهوائى ، واعلم أن هذه الأهواء جميعا ستنصب آخر الأمر فى محيط حبك كما تنصب مياه النهر فى البحر العريض !

ومالت اليه وطوقته بذراعها ، ثم قبلتـــه وهو حائر . فتملص منها وأطرق برأسه ، وطفرت من عينيه الدموع ! وفى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة التى كان يتعذب فيها سيليوس ويشعر مع ذلك أن ميسالين بقربه ، وانها له وحده . . فى تلك اللحظة برز شاب أشقر الشعر باهر الحسن ، واجتاز الحديقة ثم وقف عن بعد تحت شجرة باسقة ، ثم انبطح على الأرض ، ثم نهض وطفق يثب ويتثنى ويتلوى ويقوم بحركات رياضية رائعة تحت ضوء القمر . .

وكانت أعضاؤه المرنة المفتولة تلمع كالبرق ، وصـدره الأبيض الناصع ينافس فى تألقه أشعة القمر . فارتعشت ميسالين ونهضت هى أيضا . نهضت من تلقاء نفسها ، على دهش منها . وقبل أن يتنبه سيليوس أو يتحرك ، عدت الى أقصى الحديقة وأصدرت أمرا الى رجال الحرس ، فاندفعوا صوب الشاب الأشقر الشعر وأطبقوا عليه ، ثم جروه جرا ، وهو يتملص ، ويتوعد ، وينذر ، ويقاوم !

وأدرك سـيليوس أن الفتى الرياضى قد راق فى عـين ميسالين . فاقشعر بدنه ، وغشى الدم وجهـه . ولكنه لم يستطع أن يتحرك !

وفجأة سمع صراخ طويل ، صراخ متقطع يفتت الأكباد . . وشوهد الأحدب ، الفيلسوف ، الثائر ، المتمرد الذى كان يلعن الساعة ميسالين ويستنزل عليها لعنة الله والشعب ،

شوهد وهو يركض فى ضوء القمر خلف الجنود ويصيح فى شبه خبال :

ـ ولدى ! ولدى !

وطفق يركض حتى خانتـه قواه ، فتهاوى على نفسـه وسقط على العشب ، مغشيا عليه !

وقهقهت ميسالين واقتادت سيليوس وهو يترنح . **ولما دنت من الشيخ الصريع ألقت عليه نظرة ثم ركلته بقدمها ، ومضت تختال تيها وعجبا ، دون أن تتنبه لا هى ولا سيليوس الى شيء أبيض مطوى سقط منها وهى تعـدو وعلق بغصن شجيرة ، وظل يتراقص تحت أشعة القمر !**

وعنـدما غادرت الحديقة فى صحبة عشيقها ، هبت من الشمال ريح باردة سرعان ما اشتدت وطوحت بالأشجار . فاستفاق الأحدب الشيخ على صفيرها وتحامل على نفسـه ونهض . نهض يفتقد عصاه ويجيل الطرف حوله وهو شارد . واذا به يلمح ذلك الشيء الأبيض المطوى يتراقص فوق غصن الشجيرة . فاسترعاه منظره وانحنى عليه والتقطه . وما كاد يبسطه ويتأمله حتى بهت . بهت واعتراه من فرط الفرح شبه جنون ، فألقى بعصاه وجلس على الأرض وشرع يقرأ ..

وكان ذلك الشيء الأبيض الذى سقط من ميسالين هو عريضة الالتماس التى كانت قد اعتزمت أن ترفعها الى مجلس الشيوخ لتستصدر منه ، ان طوعا وان كرها ، اذن الاقتران بعشيقها ، فتصبح فى وقت واحد زوجة الامبراطور ، وزوجة سيليوس !

ــ ٣ ــ

• فى مساء اليوم التالى افتقدت ميسالين العريضة فلم تجـدها !.. فاستاءت ولكنها لم تحفل ، وعولت أن تكتب

غيرها ، بعد اذ تكون قد أمضت ليلة شائقة ممتعة بين أحضان الشاب الرياضى القوى الذى حمله الجند الى قصرها !

وتبرجت وتطيبت ، وارتدت أبدع غلائلها ، ثم أرخت شعرها الأثيث على كتفيها الناصعتين ، وتمددت على الأريكة .. ثم أمرت بأن يدخل عليها الشاب الأشقر الجميل .

ودخل أوكتافيوس ابن الأحدب الفيلسوف . وما كاد يبصرها حتى عرفها ، وأدرك ما يراد منه !

وكان أوكتافيوس معجبا بميسالين ، مقدرا عطفها وسخاءها على أبطال المصارعة ، متطلعا الى الظفر منها بلقب البطولة الذى رصد عليه جهد حياته . فلما ألفى نفسه فى مخدعها ، وأدرك أنها قد اشتهته لجماله وشبابه ، ذكر لفوره الفتاة الطاهرة التى يحبها ، واستهول أن يتلوث وينقض العهد المقدس الذى قطعه لها ، فانقلب اعجابه بالمرأة الى غضب مستنكر كظيم ، ماؤه العزم على التمنع والتعفف ، والمجالدة والثبات !

وطوقته ميسالين بنظرة ظمأى ، وقالت وهى تبسط له ذراعيها الناضرتين :

ــ تقدم أيها الشاب ، وقل لى ما اسمك وصناعتك ؟

فأجاب وهو يرتعش :

ــ أنا أوكتافيوس ابن الشيخ « جالبا » الفيلسوف ، وصناعتى مصارع . ولكنى ما زلت مجهولا لم أحرز بعد لقب البطولة ، ولم أتشرف بالمثول بين يدى مولاتى قبل اليوم !

فألقت عليه نظرة دل ناعسة ، وغمغمت :

ــ ادن منى .. اجلس .. هنا بجوارى .. لا تخف .. أنت منذ الساعة بطل يا أوكتافيوس !

وتماوجت أعضاؤها تماوج الأفاعى ، وامتدت يدها الرخصة وتصلبت كأنها مخلب ، وأمسكت بالشاب وجذبته

اليها . فانحنى أوكتافيوس أمامها ، وجثا على الأرض ، وقال وهو يرفع الى المرأة المرهوبة بصره الزائغ ويتمتم :

ـ أنا شاب فقير لا أملك غير ساعدى .. فاليك يا مولاتى هـذا السـاعد ، فهو فى خدمتـك . أما قلبى ، وروحى ، وجسدى ، فقد وهبتها كلها يا مولاتى ، وليس فى مقدورى أن أسترد ما وهبت !

فوثبت ميسالين من أريكتها وثبة فهد كاسر ، وواجهت أوكتافيوس بعينيها الذاهلتين المتقدتين وصاحت :

ـ ما معنى ما تقول يا فتى ؟

فتمالك الشاب نفسه وأجاب :

ـ لى خطيبة أحبها بل أعبـدها ، وقد تعـاهدنا على الزواج ، وليس من تقاليدنا يا مولاتى أن ننقض العهد !

فأرسلت المرأة ضحكة مدوية وقالت :

ـ العهد شىء ، وفرصة العمر شىء آخر ..!

وصمتت لحظة وهى تتلوى ، ثم أردفت فى عنف :

ـ ولقد أحببتك وميزتك يا أوكتافيوس ، فانتهز فرصة عمرك وتقدم !

ومالت اليه بجمع بدنها واحتضنته . **فاندفق الدم الى وجه الشاب ، وتراجع ثم ارتمى ثانية على الأرض ، وطفق يقبل يدى ميسالين وهو يصيح :**

ـ الرحمة يا مولاتى ! لا تلوثينى فى نظر نفسى . لا تحاولى القضـاء على مستقبل حبى . كيف يمكننى أن أتزوج غدا خطيبتى وأعيش معها وهـذه الجريمـة نصب عينى ؟ انا لا أستطيع أن أغدر . لا أستطيع أن أخدع . لا أستطيع أن أقرب الفتاة الطاهرة التى أعبدها وأنا منتهك وملوث . ان حبى يا مولاتى لا يكمن فى قلبى فقط بل فى ضميرى أيضا . ولو انى خنقت الآن ضميرى فلا بد أن أجهز فى الوقت نفسه

على حبى ، والا أصبحت شرا من أخبث وأفتك المنافقين والحانثين . لا .. لا يا مولاتى .. أنت عظيمة ، ورحيمة ، وعادلة ، وأنا واثق بل مؤمن بأن كرامة نفسك لا بد أن تصون كرامتى ، وشرف خلالك لا بد أن ينقذ ضميرى ووفائى وشرفى !

وجاشت عواطفه وبكى . بكى كما كان يبكى سيليوس ، فعضت ميسالين على شفتيها ، وشعت من عينيها نظرة احتقار تخللها وميض خاطف غريب ، ثم ضمت على صدرها أطراف غلالتها وارتدت الى الأريكة وتمددت عليها .. وقالت فى صوت عذب رخيم ، كأن كلمات الشاب لم تستفزها ولم تصب مقتلا من كرامتها وكبريائها :

ـ مرحى لك يا أوكتافيوس . انك فى الحق لعاشق وفى ! هذه التجربة الخارقة التى خرجت منها ظافرا تمنحك لقب البطولة الفذة عن جدارة واستحقاق ! ستصلك البراءة غدا ، وستكون أول المصارعين فى أول حفلة شعبية أقيمها !

وجاهدت نفسها لتضفى على وجهها شتى ألوان الرضا . ثم ابتسمت فجأة ابتسامة مطمئنة وصريحة ، وقالت فى بساطة ساذجة رائعة :

ـ وما اسم خطيبتك ؟

فارتاح أوكتافيوس لابتسامتها ، وأجاب على الفور :

ـ هى « أوجستا » بنت الشيخ « كاتون » صانع السلاح المشهور ..

فأسبلت ميسالين أهدابها وغمغمت :

ـ بورك لك فيها يا بنى . فلأنت جدير بملكة ! اذهب . اذهب الآن الى حجرتك ، وسأصدر أمرى حالا باطلاق سراحك ..

فانحنى أوكتافيوس وقبل طرف ثوبها خاشعا وخرج .

وما كاد يختفى حتى عصف الذل والحقد والاستنكار بالمرأة فانفجر غضبها المحتجز ، وأسرعت الى أسطوانة نحاسية مثبتة فى الحائط فضربتها بمطرقة . فمثل أمامها عملاق افريقى أسود كانت قد عهدت اليه بحراسة مخدعها . فصاحت به وهى تكاد تفقد رشدها :

ـ حذار أن يمس هذا الشاب بسوء ! ولكن لا تفرجوا عنه ، وانما عاملوه أحسن معاملة وأكرموه !

واتأدت لحظة وهى تلهث ، ثم أردفت فى صوت غائر أجش :

ـ القوا القبض منذ الساعة على الفتاة المدعوة أوجستا بنت الشيخ كاتون صانع السلاح !

وكان الأحدب الفيلسوف « جالبا » الذى روعه وذهب بلبه اعتقال ولده « أوكتافيوس » ، يطوف بقصر الامبراطورة كالروح الحائر ، لا يدرى ماذا يجب عليه أن يفعل . كان يخشى على ابنه الوحيد من غدر ميسالين . كان يوجس خيفة من أن توقع المرأة الفاجرة بولده بعد اذ تكون قد قضت لبانتها منه .. فظل يحوم حول القصر ويتسقط الأنباء من الخدم ، ويستفسر فى لباقة وحذر عن موعد عودة الامبراطور .

وكان الامبراطور كلوديوس زوج ميسالين متغيبا فى مدينة « أوستيا » ، يتفقد حاميتها ، فقيل لجالبا انه قد يعود بعد أسبوع أو شهر . **فجن جنون الشيخ ، وسدت فى وجهه السبل ، وخيل اليه أن ابنه قد استلب منه الى الأبد ، وأن القدر الغاشم قد سلط هذه المرأة على وحيده لتفقده الشرف والشباب والحياة !**

واستبدت به الهواجس ، وبرحت به الريب والشكوك .. فألقى على القصر نظرة يأس ممزقة ، ثم كر راجعا الى بيته . وكان الوقت ظهرا والحر خانقا ، والشمس تتوهج فى كبد

السماء ، فتمهل الشيخ لحظة ومسح عرقه بكم ردائه ، ثم استأنف المسير .

وبغتة طرق سمعه صهيل خيل ، وصفير أبواق ، ودوى مركبات .. فتوقف مذعورا ونظر . نظر الى الأفق القريب . واذا به يستشف عن بعد موكبا عظيما يتقدم صوبه كالعاصفة .. فأسرع وتنحى ولاذ بقاعدة أحد التماثيل واحتجب خلفها . وكان موكب عودة الامبراطور ، فترجل كلوديوس فى هدوء ، وتبعه الأشراف والأعيان .. وصدحت الموسيقى ، وهتف الحرس ، **وأطلت ميسالين من احدى شرفات القصر وجعلت تلوح بمنديل أحمر مرحبة بزوجها الذى لم تكن تتوقع أن يعود من رحلته بمثل هذه السرعة !**

وامتلأت فسحة القصر بالجماهير ، وطغت أمواجها على الشوارع المجاورة ، فألفى الشيخ نفسه محاطا بها ، مندفعا معها ، مسوقا بقوتها الى حديقة القصر . فاستسلم وتقدم ، وقلبه يخفق ، وأنفاسه تلهث ، وعينه الواعية المتنبهة تبحث بين الأشراف والأعيان عن رفيق صباه الضابط العظيم « نرسيس » ملازم الامبراطور ..

.. وانه ليحدق بكل ما فى بصره الأحسر من قوة ، واذا به يلمح صديقه الكبير وهو يجتاز السلم الداخلى متأبطا ذراع القنصل مارسلوس . فما ان رآه حتى نسى نفسه ، ونسى أين هو ، وصاح بأعلى صوته غير حافل :

ــ نرسيس ! نرسيس !

فتلفت الضابط مذهولا وعرفه . فابتسم له . ولكنه لم يستطع أن يلبى نداءه ، لأن الجماهير كانت قد دفعته هو الآخر وغيبته فى أعماق القصر وهى تهتف ..

.. وظلت تهتف لحظة طويلة بعد أن أغلقت الأبواب ، بل ظلت تنادى وتطلب رؤية الامبراطور . **فبرز اليها كلوديوس**

فى صحبة ميسالين . فارتفعت صيحاتها وتعالى تهليلها . فتقدمت ميسالين الى حافة الشرفة ورفعت ذراعها وقالت فى صوت جهير ، وأشعة الشمس تغمرها ، وأضواؤها اللامعة تخطف أبصار الجماهير :

ــ موعدنا غدا فى الملعب الأكبر . ستشهدون أروع ضروب المصارعة . سأقدم لكم أوكتافيوس . أوكتافيوس ابن الشيخ « جالبا » الاغريقى ، بطل روما الجديد ونابغة المصارعين !

.. فدوت الحناجر بالصراخ والأكف بالتصفيق . وجمد الشيخ جالبا وفغر فاه كأبله ، وقد سحقته الريب والظنون ، ولكنه تمالك نفسه .. وبدل أن يكر راجعا الى بيته ، تحول عن طريقه وشق صفوف الجماهير ــ كما يشق السابح الجبار كتل الموج ــ ثم تأبط عصاه وعض على طرف ردائه وانطلق يعدو فى لهفة مخبولة ، نحو قصر صديقه الضابط العظيم نرسيس .

— ٤ —

ولم يكن الامبراطور كلوديوس ــ فى حقيقته ــ ذلك القيصر المثالى المهيب ، الجليل ، الذى اشتهر بين العامة بالحكمة والرصانة ورجاحة العقل !.. **بل كان فى الواقع رجلا واهن العزم ، مساوب الارادة ، متقلبا ، متلونا ، مترددا ، لا يستقر على رأى ولا يذعن لنصيحة ، ولا يتبع غير وحى النزوة العابرة ، والعاطفة الطائشة ، والهوى الجامح الوقتى !..** وكان يحب الملق ويستمرىء الزلفى ، ولا تطيب له الحياة الا فى رفقة من لا يعكر عليه صفوه ، ومن يحاول بكل ما أوتى من ذكاء أن يدخل السرور على نفسه ، ويخفف عنه أعباء المنصب وتبعات الحكم ..

وكان ــ كمعظم قياصرة الرومان فى عهد انحطاطهم ــ

مولعا بالملذات ، كلفا بالملاهى ، مستعبدا للبطنة ، متكبرا فى غرور ، مستبدا فى خبث ، طاغية فى مرح جنونى ، وفى قسوة ووحشية !

ولقد بذل المخلصون قصاراهم فى تلطيف طبعه ، وتنوير ذهنه ، واثارة اهتمامه بسلوك ميسالين .. **ولكنه كان لا يريد أن يسمع ، أو يفهم ، أو يرى !.. كان فى الحقيقة يحذر امرأته ويتهيبها ويخشاها** !.. كان يرتعد خوفا منها ، وينخلع رهبة أمامها ، ويضطرب ويرتبك ويتلعثم كلما اصطدم بها أو حاول اصدار أمر اليها ، أو أراد أن يشعرها بأنه هو الزوج وهو الامبراطور !

وهكذا كان يفزع من ضعفه الى الملاهى .. ويفر من جبنه الى الملذات ، ولا سيما لذة الطعام والشراب ..

وفى اليوم ذاته الذى عاد فيه من (أوستيا) ــ على غير انتظار ــ أراد أن يفرج عن نفسه ، وان يتخلص من التفكير فى امرأته ، وأن يدفن همه فى حفلة شائقة .. فاستبقى ملازمه « نرسيس » فى قصره ، وعهد اليه بتنظيم الحفلة ، ثم التمس منه أن يقضى الليل بقربه ، ليستعين بخدماته عند الاقتضاء ..

والحق أن كلوديوس كان يعلم بالعلاقة الوثيقة التى تربط زوجته ميسالين بالشريف سيليوس ، ولكنه كان لا يصدق ما ترامى اليه من أنها تريد أن تتخذ من سيليوس زوجا ثانيا .. ومع ذلك فقد كان مستريبا بها ، موجسا خيفة منها ، يتوقع أن تدبر له المكائد وتحاول أن تقتله بين لحظة وأخرى !

ولقد طالما أسعفه نرسيس بشجاعته ، وحفزه للتخلص من ميسالين بطلاقها ، أو نفيها ، أو قتلها !.. ولكنه كان لا يفتأ يتردد ويتلكأ ، ويلتمس لها الأعذار ، شعورا منه بأن أنصارها فى البلاط ، وفى مجلس الشيوخ ، وبين بعض طبقات

الشعب ، يؤلفون قوة عظيمة مرهوبة ، واسعة النفوذ والسلطان !

فلكي ينسى كلوديوس كل هذا انطوى على نفسه ، وأبى أن يشهد حفلة المصارعة التى وعدت بها ميسالين جماهير الشعب ، ورأى أن يقيم حفلته الخاصة فى الوقت نفسه ، وفى جناح قصى من القصر .

وعلى هذه الفكرة التى زينها له حقده على امرأته ، وغيرته منها ، ورغبته الخفية فى مكايدتها ، ونفوره من الظهور معها فى ملعب المصارعة وهى مصحوبة بسيليوس عشيقها .. نام كلوديوس ملء جفنيه ، مطمئنا الى حراسة نرسيس ، تداعب أحلامه شتى ألوان الطعام والشراب ، تحملها اليه وتصبها له أجمل وأفتن غادات روما !

وما كادت تشرق شمس اليوم التالى حتى توافدت الجماهير على الملعب الكبير ، وأقبلت على القصر جموع الأشراف والأعيان وأعضاء مجلس الشيوخ ، للاشتراك فى حفلة الامبراطور .

وعز على ميسالين أن يقيم زوجها فى نفس اليوم مأدبة ، وأن يرفض الظهور معها فى حفلة المصارعة .. **فأوعزت الى عشيقها سيليوس أن يجرب حظه مرة أخرى ، وأن يدس لكلوديوس السم فى طعامه ، بالاتفاق مع رئيس الطهاة !.. ولم تكن هذه أول مرة يقدم فيها سيليوس على مثل هذا العمل . ولكن عين نرسيس الساهرة كانت ترقبه ، وكانت تلحق به الفشل فى كل محاولة !**

ففى الساعة العاشرة تماما اكتمل عدد المدعوين فى حفلة الامبراطور ، وبدأت الراقصات يرقصن والمطربات يغنين ، وكلوديوس يجيل الطرف فيهن تارة ، وفى ألوان الطعام تارة أخرى ، وهو جالس على منصة عالية ومن حوله الملازم نرسيس والقنصل مارسلوس .

وكان قد ارتدى حلة حريرية ناصعة البياض ، وعقد حول رأسه اكليلا من الغار ، وأسدل على كتفيه وشاحا من المخمل الأزرق ، وأجلس بالقرب منه أجمل عازفة على القيثار ، وشرع يداعبها ويلاطفها ، وهى تسكب له الخمر فى كأس كبيرة صيغت من الذهب الخالص . وأمر كلوديوس بأن تغلق عليهم الأبواب ، كى لا تترامى اليهم من الملعب الكبير صيحات الجماهير ..

وهكذا انطلقوا يأكلون ويشربون ، ويشهدون الرقص ، ويستمعون الى الموسيقى ، وهم ممددون على الأرائك ، يحتضن كل واحد منهم غانية من غوانى روما ، أو جارية من سبايا الشرق ، أو كأسا يظنها غانية فيوسعها ضما وتقبيلا !

أما الملعب الكبير فكان فى تلك اللحظة غاصا بالناس . وكانت الجماهير — وقد الهبت خيالها دعوة الامبراطورة — تتسابق الى المقاعد وتتشاتم وتتضارب ، لتحتل أولى درجات الملعب . وكانت كل أم قد جاءت فى صحبة أطفالها ، وكل شاب قد وفد فى رفقة حبيبته ، وكل عامل أو صانع قد أقبل ومعه والدته العجوز ، أو والده الشيخ ، أو رهط من الفقراء والصعاليك والمرضى من سكان حيه والأحياء المجاورة .

وكان الملعب يبدو كقوس قزح . فأزياء الجماهير كانت متعددة وأجناسها متباينة ، تضاعف من غرابتها غرابة الوجوه ، واختلاف السمات ، وتنوع السحن .. **وفجأة سمعت فى المقاعد الأمامية صرخة امرأة ، وشوهد الأحدب الشيخ ((جالبا)) يدفع هذه المرأة فى عنف ، ويحتل بالقوة مقعدا ممتازا فى مقدمة المدرج .**

واستنكرت المرأة وقاحته ، فهوت على حدبته بكفها ، فاحتمل اللطمة ، ولكنه جلس .. فقهقه الجمهور اعجابا ، وراح يرشق المرأة المهزومة بالنكات وهو يهتف للشيخ .

وطال أمد الانتظار ، فعيل صبر الجمهور وبدأ يصرخ ويصفق .

وفى الساعة الحادية عشرة تماما أقبل حملة الأبواق ، واصطفوا داخل حلبة الملعب فى شكل هالة ، ونفخوا فى أبواقهم .. فهللت الجماهير ثم سكنت .

سكنت وتطلعت الى العملاق الافريقى ، حارس مخدع ميسالين ، الذى توسط الحلبة وحيا الجماهير بسيفه .. ثم تراجع بعد أن أصدر أمره بفتح الباب .

وفتح باب الحلبة وبرز منه عشرة مصارعين ، فنفخ الجنود مرة ثانية فى الأبواق ثم اختفوا .. وبدأ الصراع .

وكان الصراع بالسيوف . فتلاحمت النصال ، واصطدمت بالخوذ والدروع ، ثم سقط أول مصارع .. فالثانى .. فالثالث .. حتى لم يعد باقيا فى الملعب غير رجلين ، تقاتلا نصف ساعة تقريبا ، فتمكن أحدهما من الآخر وألقى به على الأرض ، ووضع قدمه على عنقه ، ثم عاجله بطعنة قضت عليه لساعته !

وتقدم المصارع الظافر ملوحا بسيفه . فهتفت له الجماهير طويلا ، ثم صمتت ، صمتت فترة وصاحت :

ـــ أوكتافيوس . نريد أوكتافيوس . المجد والحياة لميسالين !

وكانت الامبراطورة لم تزل فى مخدعها ، تتجمل وتتبرج . فأسرع اليها حارس مخدعها ، فأمرته بأن يبدأ بعرض المشهد الثانى ريثما تفرغ من زينتها وتدخل الملعب .

وعاد الجند فنفخوا فى الأبواق .. ففتح الباب الرهيب مرة ثانية ، وبرز منه فوج من الناس . فوج من النساء والفتيات ، والشيوخ والشبان ، فى أسمال بالية واطمار مهلهلة .. فصرخت الجماهير :

ـــ المسيحيون .. المسيحيون !

فتقدم الشهداء الى وسط الحلبة ، وطفقوا يصلون ويرتلون .. وعندئذ فتح باب جانبى صغير ، واندفعت منه خمسة نمور ضارية جائعة ، سرعان ما انقضت على الشهداء وشرعت تفترسهم ، وهم يصرخون وينتحبون ، ويصلون ويرتلون ..

وراق للجماهير هذا المشهد ، فعلا ضجيجها ، واختلط هتافها بزئير النمور وعويل الشهداء . وفى تلك اللحظة أقبلت الامبراطورة ، وعن يمينها الشريف سيليوس ، وعن يسارها البطل المرتقب أوكتافيوس .. فحيتها الجماهير بعاصفة من الهتاف ، وأمطرت منصتها بالورود .

وحدق الأحدب الشيخ فى ابنه عن بعد ، ولم يفهم . لم يفهم لماذا هو فى المنصة لا الملعب . ولماذا هو ينقلب من مصارع الى متفرج !؟

وحاول أن يشعره بوجوده . ولكن الشاب لم يبصر ولم يسمع ، وظل ساهما شاردا ، يخالس ميسالين النظر ، ولا يدرى من نواياها الخفية شيئا !؟

وبعد أن أتت النمور على جثث الشهداء ، ورفعت أشلاؤها الدامية من الحلبة ، صدحت الموسيقى ، ومنحت الجماهير فترة انتظار تستريح فيها أعصابها .. وانحنت ميسالين على عشيقها سيليوس ، وهمست فى أذنه وقد دبت فى عودها هزة عنيفة ، وتألق فى عينيها ضرام جذل :

— لا تحقد على غريمك . سوف ترى !

وانثنت الى أوكتافيوس وغرست نظراتها فى عينيه ، وجاهدت نفسها لتخفى سورة حقدها وبغضها ، وقالت بصوتها العذب ذى الجرس الصافى :

— ما عدلت عن الافراج عنك الا لأنتهز فرصة هذه الحفلة فأمنحك لقب البطولة ، على مشهد من أهل روما جميعا !

وابتسمت وأردفت :

ـــ سيجيء دورك ، وستهبط الى الحلبة .. فاطمئن !

وما ان كفت الفرقة الموسيقية عن العزف ، وعاد المتفرجون الى أماكنهم ، وتهيئوا لاستقبال المشهد الجديد ، حتى ألقت ميسالين الى عشيقها سيليوس بزهرة كانت تعبث بها ، ثم نهضت . نهضت منصوبة القامة شامخة الرأس ، متلعة الجيد ، ثم نظرت الى الجماهير ورفعت ذراعها ..

وساد صمت عميق ، كصمت السماء قبيل العاصفة !.. فتقدمت ميسالين خطوة ، وصاحت بصوت واضح المخارج ، باتر النبرات :

ـــ اليكم الآن يا أهل روما أروع مشاهد هذا اليوم !.. ارهفوا أذانكم واسمعوا : **لقد تطاولت على وعرضت بى فى أحد المجتمعات فتاة صلفة مغرورة من بائعات الهوى ، فقضيت عليها بالموت ! وهى ستبرز الآن أمامكم وأمام هذا البطل .. البطل المرتقب أوكتافيوس !**

وأشارت اليه وأردفت :

ـــ فاذا استطاع أن ينقذها ، فانى أمنحها الحياة عن طيب خاطر ، وأعفو عنها !

وأهابت بحارسها الافريقى :

ـــ افتح باب الحلبة وأطلق الفتاة !

فاندلعت العيون واشرأبت الأعناق ، وطفق الشعب يصيح وأبصاره موزعة بين المنصة والحلبة : المجد المجد لميسالين !

وفتح الباب للمرة الثالثة .. **وانطلقت منه فتاة مشعثة الشعر ، ممزقة الثوب ، جاحظة العينين ، واندفعت الى أقصى الحلبة وجعلت تستغيث وتصرخ :**

ـــ أوكتافيوس ! أوكتافيوس !

وما كادت تظهر حتى برز فى أثرها أسد ضخم فظيع ، أقعى على الأرض كالطود الشامخ ، وطفق يزمجر زمجرة هزت

الملعب من أعماقه .. وردت الجماهير واجفة القلب ، حاسرة الطرف ، منخلعة الأعصاب !

وحدق أوكتافيوس الى الفتاة وصاح :

— أوجستا !

فقهقهت ميسالين وأجابت :

— **هى بعينها !.. فاهبط اليها ، انقذها ! انقذ الآن خطيبتك ان استطعت !**

فتاه عقل الشاب وذهل . ذهل ولم يتحرك . وعندئذ سمع صوت الأحدب الشيخ يهدر عن بعد ويقول :

— قم بواجبك يا بنى وتشجع ..

ثم سمع من مؤخرة الملعب صوت آخر يجأر وهو ينتحب :

— ابنتى !

وكان هو صوت صانع السلاح والد « أوجستا » . فلم يكد يسمعه أوكتافيوس حتى تمزق وصحا . صحا كمخبول ولم يتردد . **وفى مثل خطف البرق وثب من المنصة الى الحلبة ، ثم غافل الأسد وعدا صوب أوجستا . وقبل أن يتنبه الوحش ، أطبق أوكتافيوس على الفتاة وحملها بين ذراعيه وقذف بها الى المدرج .. فتلقفتها أيدى الجماهير التى انطلقت تهلل وتصرخ :**

— **المجد لأوكتافيوس .. والحياة للغانية !**

وفى تلك اللحظة زمجر الأسد وقفز . قفز نحو الشاب فى سورة طارئة داهمة .. فامتشق أوكتافيوس سيفه وارتمى عليه . ارتمى عليه فى حذر وطعنه فى جبهته . فثارت ثائرة الوحش وتراجع . فعاجله الشاب بطعنة أخرى . فانقض عليه الأسد بجمع مخلبه وهو يزأر . فراغ منه أوكتافيوس وعدا الى أقصى الحلبة . ولما أبصر الوحش مكرا عليه ثبت فى مكانه وسدد اليه بصره ، ثم أغمد فى صدره السيف .

فترنح الأسد وأوشك أن يميد . ففرح أوكتافيوس وهم بأن يطرح سيفه .. **ولكن الأسد أفاق بغتة من غشيته . وقبل أن يطوح به ألم جراحه ، استجمع قواه وانقض على الشاب ، وضربه بمخلبه فى صدره .. فهوى أوكتافيوس على الأرض صريعا .. وهوى الوحش بالقرب منه يتخبط فى دمه !**

واندفع العملاق الافريقى الى وسط الحلبة وصاح :

ـــ مات البطل أوكتافيوس ، ولكنه قتل الأسد !.. المجد والحياة لميسالين !

فهبت الجماهير واقفة وأنشدت على نغمات الموسيقى نشيد وداع الأبطال ، ومضت تلقى طاقات الورد على جثة أوكتافيوس وهى تغنى ..

واذ ذاك ، وفى صميم تلك الجلبة التى اختلط فيها الغناء بصياح النساء ، وولولة الأطفال ، وعزف الموسيقى .. كان الشيخ الأحدب « جالبا » ـ والد أوكتافيوس ـ يمزق وجهه بأظفاره ويضرب صدره بكلتا يديه ، ويشق صفوف الجماهير وهو يسمع نحيب أوجستا خطيبة ولده ، ويتجه فى جنون نحو منصة ميسالين .. **لقد فقد عقله فأراد أن يثأر منها وأن يقتلها . ان يغافلها ويرديها بطعنة خنجر قبل أن تغادر الملعب** . وانه ليتقدم صوبها راسخ العزم ثابت الخطى ، واذا به يقف على الرغم منه ويتراجع !.. أبصر صديقه ، صديقه الذى لم يستطع أن يتصل به أمس ـ الضابط نرسيس ـ يعتلى المنصة فى عنف وقد اتسعت حدقتاه ، وانبعثت منهما بوارق ملتمعة أشبه بشرارات نار ، ويندفع نحو ميسالين ويصرخ فى وجهها غير حافل :

ـــ اتبعينى حالا .. هذا أمر الامبراطور ! كان طعامه مسموما وقد أكل منه أحد العبيد فمات !.. انه يتهمك ويطلبك الساعة للدفاع عن نفسك !

فوجمت ميسالين ولكنها تماسكت وابتسمت . ونظرت الى سيليوس ولم تتحرك . أما الأحدب الشيخ فقد أفقده الفرح صوابه . فاخترق زحمة الجماهير وصاح بكل ما فى قلبه من حقد ولوعة وأسى :

— نرسيس .. نرسيس .. خذنى معك . أريد أن أرى الأمبراطور !

فنهضت ميسالين وتطلعت اليه مستغربة ، فلم يتهيبها ، بل دنا منها وتحداها .. وفى صوت غائر متحشرج تدوى فى أعماقه البعيدة نذر القدر ، ألقى فى وجهها هذه الكلمات :

— انك قد قتلت أوكتافيوس ولدى ، ولكن ثأرى لا بد أن يطاردك حتى تلفظى النفس الأخير !

وأردف فى وحشية ، وهو يكاد يقهقه :

— العريضة معى !.. الالتماس الذى كتبته أنت بخطك لترفعيه الى مجلس الشيوخ ، منتهزة فرصة غياب الامبراطور فى أوستيا .. انه معى ! وأنا أريد أن أرى الامبراطور !

فأبرقت عينا نرسيس ، واختبلت ميسالين وصاحت :

— القوا القبض على هذا الشيخ !

فصرخ نرسيس باسطا ذراعيه :

— ويل لمن يمس هذا الرجل بأذى !

والتفت الى من أقبلوا فى صحبته من الأشراف والأعيان والجند ، أنصار الامبراطور ، وقال :

— فرقوا الجماهير ، وسوقوا الى القصر ميسالين وسيليوس !

واقتاد الأحدب من ذراعه وأردف :

— اتبعنا الى حيث يقيم الامبراطور ..

وطوق الجمع ميسالين وعشيقها ، ودفعهما الى الأمام دفعا ، فاستشاط غضب الأمبراطورة وصاحت :

ـــ الى يا أجريبا !

فامتشق العملاق الأفريقى حسامه . ولكن نرسيس كان أسرع منه ، فعالجه بضربة سيف فى صدره قضت عليه !

وحاول سيليوس أن يذود عن عشيقته . غير أن أحد الضباط تمكن منه وانتزع سيفه . فامتقع وجه ميسالين وارتعدت فرائصها ، ولم تجد بدا من الاذعان ، فتقدمت .. ولكنها تمالكت نفسها وطوقت بذراعها خصر عشيقها ، وقالت له فى صوت خفيض وهى تبتسم :

ـــ تشجع واعتمد على ! ما زلت امرأة ، وما زال فى وسع المرأة أن تهزم امبراطورا !

ومشت مشيتها الملكية وكأنها فى موكب مجد وحياة ، لا فى موكب هزيمة وموت !

وكان الامبراطور ممددا على أريكته ، يفكر فى الأمر الذى أصدره ويرتجف . كان يود أن يقضى على ميسالين ، ويود فى الوقت نفسه أن يجد مبررا للعفو عنها ! .. كان خوفه منها يشوش فكره ، ويزعزع ارادته ، ويبتليه بشبه نوبات متقطعة من الحماسة والفتور ، والاقدام والاحجام ، والبسالة والجبن !.. فلما دخل عليه نرسيس مصحوبا بالشيخ « جالبا » ، تلفت اليهما وهو ساهم . . ثم حدق الى الشيخ الغريب فى ذعر وأهاب بالضابط :

ـــ من هذا الرجل ؟

وقبل أن ينطق نرسيس أو الأحدب بكلمة ، **دخلت ميسالين وارتمت على زوجها ، وعانقته عناقا حارا وبكت .. اجهشت بالبكاء وهى تعانقه وتقبله .. ثم اختلجت وتأوهت وتثنت . وفى وقاحة منكرة كوقاحة البغايا ، حلت شعرها ونضت عنها ثوبها ، وضمت اليها كلوديوس وهى شبه عارية ، وطفقت تهمس فى أذنه بكل حرارة أنوثتها ولهب جثمانها :**

— لا تنصت لهم . انهم مفترون ومغرضون . الحقد يملأ قلوبهم . هم الذين دسوا السم فى طعامك . هو نرسيس الذى يطمع فى الملك بعدك . أما أنا فأعبدك ، وأنت وحدك مولاى وسيدى . فاقتلنى ، اقتلنى اذا شئت . ولكن اعلم انى طاهرة وبريئة . انى أحبك ، وانى وان كنت مسكينة ومظلومة الا أن أسعد لحظة فى حياتى هى اللحظة التى أموت فيها بيدك !

فاضطرب كلوديوس وانتشى . ولكن نرسيس اندفع نحوه ، وجذب الأحدب من ذراعه ، وقال فى صوت جهير :

— أبرز العريضة ((يا جالبا)) ! تقدم ! تقدم ولا تخف !

ففتح كلوديوس عينيه المنتفختين وقال :

— أية عريضة ؟

فصاح الشيخ جالبا وقد احتوته شجاعة دونها شجاعة ولده :

— انه التماس .. بل انذار مشوب بتهديد واضح ومصوغ فى قالب التماس ، **كتبته الامبراطورة لترفعه الى مجلس الشيوخ أثناء غيبتك ، كى يخول لها وهى زوجتك الشرعية حق التزوج برجل ثان .. واليك المستند يا مولاى !**

ودفع بالورقة الى الامبراطور . فما كاد كلوديوس يلقى عليها نظرة حتى صرخ :

— انه خطك يا ميسالين !

فهتفت المرأة على الفور :

— انه سيليوس لا أنا ! هو الذى حرضنى ! هو الذى أوعز الى ! ولكنى استفقت وثبت الى رشدى ، فألقيت بالعريضة فى احدى الحدائق وأقسمت بالآلهة أن أطرد سيليوس اليوم من روما ، وأن أظل طوال حياتى كما أنا

الآن وفية لك وحدك ، لا أعرف غيرك سيدا وعاشقا وحليلا !

فجحظت عينا سيليوس ، واستهول غدر المرأة ونفاقها ، فتقدم رافعا رأسه وقال :

— انها كاذبة ! الخط خطها ! وهى التى اتخذتنى عشيقا بمحض ارادتها ، وأرادت أن تقترن بى ، ثم تسعى لقتلك ثم تتوجنى امبراطورا ! لقد ضحت بى الآن لتفلت من عقابك . ولكنك لو عفوت عنها فستكون أنت ، أنت يا كلوديوس أول ضحاياها ! أما أنا فمن المحال أن أدعك تطردنى من وطنى أو تعاملنى كمجرم فتسلم عنقى الى سيف الجلاد ! وداعا !

واستل سيفه وبقر به بطنه . فانهار وهو يجاهد كى يخنق ألمه ولا يرسل فى لحظاته الأخيرة أية زفرة . فصاح نرسيس متوسلا وهو يمد ذراعيه ويشير الى ميسالين :

— لا ترحمها يا مولاى . اتبعها بعشيقها ! انقذ نفسك وانقذنا !

فجثت ميسالين وصرخت وهى تقبل قدمى زوجها :

— الرحمة يا كلوديوس . انى أحبك !

فقال نرسيس منذرا :

— لو عفوت عنها يا مولاى ، فثق انك لا بد أن تفقدنى وتفقد منذ هذه اللحظة أنصارك جميعا !

فارتعش كلوديوس وتمتم :

— اعطوها .. اعطوها خنجرا ! لقد كانت امبراطورة ويجب أن تعرف كيف تموت !

فأسرع نرسيس وناولها خنجره .. فاصفر وجهها ، واندلعت عيناها ، وأمسكت بمقبض الخنجر وهى ترتعد من فرعها الى قدمها . عز عليها شبابها وجمالها ، ومجدها

ونعيمها ، وجبروتها وسلطانها . **فجمد الدم فى عروقها ، ولم تستطع أن تدني طرف النصل من صدرها . فدنا منها نرسيس ، وانحنى عليها ، ثم أمسك بيدها المشاولة ودفع بالخنجر فى صدرها حتى مقبضه !**

وتهاوت ميسالين والدم ينزف منها ، وعيناها تحدقان فى الشيخ الأحدب المأخوذ ..

.. وعندئذ ، وفى مثل مسرى النار ، ترامى النبأ من القصر الى الخارج .. فاندفعت الجماهير الواعية ، الموالية لنرسيس ، الحاقدة على الامبراطورة ، الثائرة على نظام الحكم كله ، واقتحمت البهو الواسع . فتقدم أحد الاشراف ، وحنى سيفه أمام كلوديوس وقال :

ـــ ماتت ميسالين الفاجرة . المجد للامبراطور !

ولكن الجمهور هتف هتافا قاصفا مجلجلا :

ـــ المجد للشعب ! المجد لروما !

فانكمش كلوديوس ، وارتعدت فرائصه ! أحس قوة الشعب الغاضب لأول مرة فى حياته ، فتحامل على نفسه ونهض . ولم يسعه الا أن يلوح للجماهير ويردد صاغرا :

ـــ المجد للشعب . المجد لروما .

أما الأحدب الشيخ جالبا ، الذى كان فى تلك اللحظة أسعد الناس وأشقاهم ، فقد انسل من القصر .. ولما استقبل الشارع العريض ، انطلق من فوره الى بيت « كاتون » صانع السلاح ، وجل أمله فى هذه الدنيا أن يرى خطيبة ابنه « أوجستا » ، وأن يعيش أيامه الباقية بقربها ، **وأن يبكى معها ـ الوقت بعد الآخر ـ ولده الوحيد أوكتافيوس ، بطل العفة والشهامة والوفاء ، وآخر ضحية من ضحايا الامبراطورة الفاجرة « ميسالين » !**

....



تعال معى ..
إلى جزيرة "بالى"

أحدث كتاب للصحفى العالمى "جورج بيلينكين"

DESTINATION TOKYO (BY : GEORGE BILAINKIN)

عرض وتلخيص : محمد بدر الدين خليل

الجزيرة الحالمة ، فى الشرق الأقصى

● اذا قلنا أن ((جورج بيلينكين)) ولد صحفيا ذا حاسة غير عادية لكشف حقــائق السياسات الدولية ، والتعمق فى وصف بلاد العالم التى يزورها ، لا نكون مغالين اطلاقا : ففى الرابعة عشرة من عمره كان يراســـل ((لويد جورج)) رئيس وزراء ((الامبراطورية !)) البريطانية ! .. وفى السابعة عشرة كان يعلق على الشؤون الخارجيــة فى صحيفــة ((صنداى ميركورى)) .. وفى السادســة والعشرين رأس تحرير صحيفة كبيرة فى الملايو ، وكان ممثلا لصحيفة ((التايمز)) البريطانيــة العريقة .. ثم كبيرا للمراسلين الديبلوماسيين لمجموعة صحف اللورد ((كيمزلى)) .. وكان ضيفا ـ فى مناسبات عديدة منذ سنة ١٩٣٨ ـ على ملوك ورؤســاء ٤٤ دولة ، بينهم : الملك فيصل ، وسلفه الملك سعود ، والجنرال ديجول ، والدكتور سالازار ، وجون كنيدى ، و ((بيرون)) (عندما كان رئيسا للارجنتين) .. ونشرت له صحف لنــدن وأمريــكا أحاديث معهم ، وتحقيقات صحفية سياسية فى دولهم ..

و ((بيلينكين)) يمتاز ببعد نظر ، وجرأة فى انتقاد سيطرة البيض على دول آسيا ، وفى مهاجمــة الاستعمار الغربى .. وكان من أقسى من حملوا على ((ترومان)) بسبب الدمار الذى أحدثته القنبلة الذرية فى (هيروشيما) ، ولسوء سياسته مع اليابان .. كما تنبــأ ـ فى كتاب أصدره فى مارس ١٩٣٤ ـ بمحاولة ((هتلر)) غزو بريطانيا ، وتحقق توقعــه بعد خمس ســنوات !

وفى حديثه عن سنغافورة والملايو واندونيسيا ـ وغيرها من دول الشرق الاقصى ـ يلمس القارىء نقمتـه على السياســة

الغربية ازاء هذه الدول ، وازاء الصين الشعبية .. ورائده في تحقيقاته أن تلميذا لكونفوشيوس سأله يوما عن مقومات الحكم ، فقال : ((كفاية فى القوت ، وكفاية فى القوات ، وثقة الشعب)) !

والكتاب الذى نلخص لك فصلا منه فى الصفحات التالية ، عنوانه : ((فى الطريق الى طوكيو)) ، وفيه يتحدث ((بيلينكين)) عن زياراته لبلاد الشرق الاقصى ، ابتداء من : الهند ، وكشمير ، ثم سنغافورة ، واندونيسيا .. فالفيليبين ، وأخيرا : اليابان ..

وفيما يلى يحدثنا المراسل العالمى حديثا ممتعا عن زيارته لجزيرة (بالى) ، أجمل جزر اندونيسيا :

بالى : شمس مشرقة ، وابتسامات ، ونسمات ودودة

● **طالما** اجتذبتنى (بالى) ، الجزيرة التى لا سبيل الى وصف فتنتها ، والتى تستلقى فى مضيق (لومبوك) ، سابحة فى الشمس المشرقة ، والنسائم الودودة . **فكم رغبت فى أن أشهد فيها – بين الخضرة اليانعة ، وتحت القمم ذات القداسة ، ووسط المياه المرهوبة – ثمار الحضارة ((الجاوية)) الشامخة ، وثقافة ترجع الى ألفى أو ثلاثة آلاف عام !.. كم رغبت فى أن أتأمل باعجاب سلالة الرجال والنساء الذين صدوا ببسالة غزوات فاتحين من البيض الأقوياء الحاذقين ، الى بداية هذا القرن .. ولو قدر لى أن أبقى هنا الى الأبد ، لبقيت مغتبطا .**

عندما هبطنا من الطائرة ، بدا جنود جمهورية أندونيسيا – السمر ، الذين تقل أحجامهم عن المتوسط – فخورين بثيابهم الرسمية ، رمز الحرية المكتسبة حديثا ، بعد حكم البيض الغلاظ . وتراءت على ملامحهم سيماء الازدراء لأى زائر أبيض !

على أن (بالى) نفسها استقبلتنى بدفء وحفاوة .. كان

الماء تحت « مصاطب » الأرز ، يلمع عاكسا صور النساء العاملات فى الحقول .. ومزارع جوز الهند المنسقة تزين المنظر الطبيعى بوشى جميل .. والمعابد الخاصة الملحقة بالمنازل ، توجه تقريعا صامتا لعديم الايمان .. والنسيم العليل ، المعبق بشذى النخيل ، لا يمكن أن ينمحى من الذاكرة .. والسماء الصافية من الشوائب ، وخصب الأرض المزروعة ، يطبعان المشاعر بقوة وسرعة .. وفى خطوات أنعام حمل الأثقال ، البطيئة ، ما يميزها عن غيرها من النعام فى أى مكان ، حتى اننى رجوت مرافقى الثرثارين – أكثر من مرة – أن يكبحا جماح سائق سيارتى ، الذى كانت السرعة تستهويه ككثير من الأسيويين حديثى العهد بهذا الاختراع الشيطانى القادم من الغرب !

وكثيرا ما وصفت (بالى) بأنها الواحة التى تسير فيها الحسناوات السمراوات ، بخصور عارية ، ولكنى لم أر منهن الا قليلات .. وسرعان ما قدر لـ (بالى) أن تكشف عن نفسها بشكل أصدق وأصح : ثلاث نساء مثقلات – تتراوح أعمارهن بين الثلاثين والخامسة والثلاثين – يحملن على رؤوسهن كميات من الخشب المقتطع للوقود .. وكن يمشين بخطوات متزنة ، ببراعة مألوفة بين الأسيويات ، ولكن شيئا من الاحتجاج شابها ، لأن غريبا اقتحم طريقهن ! .. كن يسرن فى صف واحد ، بخفة توحى بجلد وقوة تحمل . واذ اقتربت منهن ، لمحت بريقا عابرا فى عينين معبرتين ، تحولتا بسرعة الى الأرض .. فقد ابتسمت أولى النساء فى خبث . كانت فى ثوب قطنى خفيف ، رمادى اللون تتخلله نقوش بيضاء .. وما من كساء آخر سوى منديل ليمونى اللون ، يقى الشعر الحريرى اللامع من كتل الخشب ، ولا حذاء ، ولا جوارب .. وكان يزين يدها خاتم معدنى مرصع ، وتحيط بعنقها قلادة معدنية تتخللها

أحجار خضراء .. وكانت الثانية مثلها ، وقد صدعت بالأمر الرسمى الذى أصدرته حكومة (بالى) ملزمة النساء — اللهم الا الصغيرات أو الطاعنات فى السن — بأن يسترن صدورهن . وكان للمرأة الثالثة وجه برىء ، وان كان مثيرا ، وقد سارت رافعة الرأس ، تطوح بذراعيها الجميلتى الاتساق بحركة متزنة .. ولم تجذب الوشاح — لتزيد من ستر صدرها ، امتثالا لداعى الحياء — الا بعد أن تجاوزتها السيارة !



تلقى التماثيل الخشبية النصفية التى يصنعها أهل جزيرة « بالى » تقديرا ورواجا فى كافة أنحاء العالم .. ويرى فى الصورة صبى من أهل الجزيرة يتأمل تمثالا نصفيا منها ..

الحياة الوادعة .. فى الجزيرة الساحرة

● **ومن** الأفق تمتد معالم زراعة منسقة وفقا لغاية محددة ، توحى بخصوبة رائعة ، واحترام لكرامة الانسان .. فان صفوف النبات - فى كل مكان - تكاد تكون مرسومة بدقة ، وبزوايا محددة ، كما أن المسافات بين أحواض الأرز تكاد تكون محسوبة بدقة .. ووجدت فيها أقصى ما استطاع الكادح أن يبلغه من كرامة مرتجاه ...

أصحيح أن (بالى) جزيرة أشبه بجوهرة كبيرة الحجم ؟ .. هكذا خطر لى لحظة ، ولكنها تبلغ ٩٠ ميلا عرضا ، و ٤٥ ميلا - على الأكثر - من الشمال الى الجنوب ، وتضم مليونين ونصف مليون من السكان ، معظمهم من الوطنيين - وبينهم حوالى ١٠ آلاف من الصينيين - وعدد من الأوربيين ، والأسيويين المخاطين . وتمثل الأبقار والخنازير الشطر الأكبر من الماشية ، بينما تكاد زراعتهم تقتصر على الأرز . وينافس انتاج البن أنواع النشاط الباقية . وهناك حرف يدوية .. وتلقى التماثيل النصفية - التى يصنعها أهل (بالى) من الخشب - تقديرا فى كافة أرجاء العالم .. كما أن الأساور ، التى تتخللها ثقوب زخرفية ، من الفضة والذهب ، ذائعة الصيت .

ورغبت فى أن أعرف السر فى أن أهل (بالى) يشعرون بهناء هادىء صاف ، يقدمون الدليل عليه فى كل حركة . ولم تكن المهمة سهلة ، فرحت أراقب الخدم فى الفندق ، والشخصيات المغمورة فى (دين باسار) ، عاصمة الجزيرة ..

وكنت ألمح فيمن أتأملهم - من المارة على الأقـــدام أو على الدراجات - أمارات خاطفـــة لشعور بالازدراء لأى أجنبى أبيض .. ولعلهم يعتبرون كل غريب أبيض هولنديا دخيلا ؛ فان الهولنديين موضع كراهية ، حتى فى (بالى) ، وان خيل الى أن معدل الكراهية فيها أقل منه فى بقية أرجاء الجمهورية . ففى (بالى) - حيث البراكين التى تحـــولت فوهاتها الى بحيرات صافية ، والغابات المزدحمة بالقرود - دنيا لا تربطها بدنيانا صلات كثيرة !

ويكاد أهل (بالى) أن يكونوا فنانين ، عن بكرة أبيهم ، يجيدون الرسم بالألوان ، ويحذقون الرقص ، ويعزفون على أغرب الأدوات موســيقى حزينـــة ولكنها تهز المشـــاعر ، ويستخدمون ثيابا تنكرية - وان لم يعرضوها لكل مشاهد - تظهرهم بمظهر القردة ، أو الأمـــراء ، أو الملوك ، أو الأفاعى !
وتقوم البراكين الشاهقة ، كأنها تذكر القوم بعدم الاطمئنـــان الى الحياة . وهم يعتقـــدون أن بركان (جوننج اجونج) - وارتفاعه ١٠ر٥٦٠ قدما - هو « سرة » الأرض ، وان المرتفعات مخصصة للآلهة ، والاماكن الوسطى للآدميين ، ومنخفضات الأرض وأغوارها للأرواح الخفية !

المبادىء العشرة للحياة فى (بالى) !

● **وعندما** يتوفر ثراء الطبيعة بهذا السخاء ، يغدو من الصعب الحكم لأى العوامل بالفضل الأكبر فيما لجزيرة بالى من سحر للعين وللعقل وللعواطف . ومع ذلك ، فلعل موسيقى « الجامل » الناعمة ، التى تسرى أنغامها - على غير توقع - فى

الأمسيات المكتهلة أو فى الصباح المبكر ، هى الأكثر استهواء للنفس .. فهى رقيقة ، ناعمة ، كأنها نجوى ترفع الى آلهة لا يتطاول اليها بصر البشر .. ان أنغام « الجامل » تتصاعد ببطء ورقة ، فتوحى بالرجاء فى السمو الى عوالم عليا ، ثم تحتد فجأة وكأنها تهوى الى الواقع البشرى ، وتمعن فى الهبوط وكأنها تنتهى الى الموت ـ الذى لا مفر منه ـ أو الى الخيبة !

والموسيقى تمثل ـ فى الجزيرة ـ ما هو أكثر من الحياة ، فهى تنبعث من المعابد الكثيرة ، التى يتعبد فيها الهندوكيون . وهى تسمع فى كثير من الأحيان ، لأن الأعياد تقام فى كل معبد كأحداث هامة ، ولأنها ـ الموسيقى ـ هى الغاية الكبرى فى المآدب والحفلات على طول العام .. والعام فى (بالى) ٢١٠ أيام . ويؤمن أهل الجزيرة بآله واحد ، وبخلود الروح ، وبالجزاء عن كل عمل طيب (كارمابالا) ، وبتقمص الروح فى شكل بشرى (توميتيسان) ، وبحالة الكمال التى تتحرر فيها الروح الى الأبد فلا تعود متقمصة جسدا آخر (موكسا) .

ولأهل (بالى) عشرة مبادىء أساسية فى الحياة : (اهيمسا) حب المرء لاخوته البشر ، و (براهماكارى) أى قمع الرغبات والشهوة ، و (ساتيا) أى نقاء القلب وصدق الاخلاص ، و (ايواهارا) أى تجنب المشاجرات ، و (استنيا) أى تحريم سرقة ما يملكه الغير ، و (اكرودا) وهى السيطرة على الغضب ، و (جورو سوسروسا) أى احترام المعلم والأبوين والحكام ، و (سوتجا) أى الاستقامة ، و (اهارا لاجاوا) أى القصد فى الأكل والشراب ، و (ابرامادا) أى الحذر واليقظة .

وفى عالم تسوده هذه المبادىء ، لا تحتاج الصفة الغالبة لأهل (بالى) الى دراسة أو ملاحظة طويلة .. ففى قطاراتنا - لا سيما فى لندن والمدن الكبرى - نجد الصياح والردود الخشنة من الأمور العادية ، ونجد الجباه تتجعد قبل سن الثلاثين .. ويفسد الاكفهرار ما تكون الطبيعة قد أضفته من بهاء على أقبحنا شكلا . وفى مقابل القلق والعجلة فى بلاد البيض ، نجد النقيض تماما فى طريقة كلام أهل (بالى) المتئدة ، وفى مشيهم المتزن ، المكتمل الرشاقة ، المتسم بالخفة الطبيعية ، وهم حفاة .. وفى التأرجح الجذاب للذراعين واليدين ، وفى حركة الردفين والساقين .. ولا يبدو فى (بالى) أثر للفزع أو الذعر .

انهم كثيرا ما يقدمون القرابين فى معابدهم ، أو يحضرون حفلات تتعلق بحياة الانسان عبر هذه الدنيا . **فطقوس الاحتفالات تضم مآدب تقام فى أوائل الحمل ليبارك الله الجنين ، وتستمع الحامل قصص المشاهير وفضائلهم ليأتى الجنين على خلق حسن . وفى المعابد الصغيرة المشيدة من الغاب (البوص) تقام حفلات لايداع مشيمة الوليد (أو الحبل السرى) جوف قشرة ثمرة جوز الهند !..** وعلى المذبح توضع القرابين ، وبعد ثلاثة أيام من مولد الطفل تقام مأدبة ، وفى اليوم الثانى والأربعين تنظم حفلة باذخة بمناسبة أول حمام له ، ثم يحتفل بأول مرة يمس فيها الطفل الأرض ، وفى اليوم الخامس بعد المائة يحتفل بمرور ثلاثة أشهر من عمره ، وعند تمام عامه الأول (والعام مائتان وعشرة من الأيام) يقام احتفال آخر .. ولحسن حظ الطفل والأبوين والأصدقاء ، ينسى القوم أعياد الميلاد التالية !

لا يعرفون الخــوف من الموت !

● **ويؤمن** أهل (بالى) بوجود أعـــداء شريرين ـ هم شياطين ستة ـ وللتغلب عليهم تقرض الأسنان الأماميـــة ، ومنها الأنياب ، بمبرد . ولو قدر لشخص أن يموت قبل برد أسنانه ، يحتفل ببردها قبل طقوس الجنازة .. وقد تبدو هذه العادات همجية ، ولكنى اقتنعت برضـــاء القــوم عن أنفسهم وأنا أتأملهم وهم يعملون فى حقــول الأرز ، ويعنون بحيواناتهم ، ويجوسون خلال غنمهم ، ويتجاذبون الأحـاديث بجوار المعابد ، ويسيرون فى صف وأحمالهم فوق رؤوسهم . وما أحسب أهل المدن الغربية أسعد منهم .

وهم لا يعرفون الخوف من الموت .. فالموت عندهم مبعث للغبطـة ، لا للحزن ، اذ أنه يمثل اكتمال أقدس واجب ، الا وهو تحرر الروح لتسمو الى العالم العلوى .

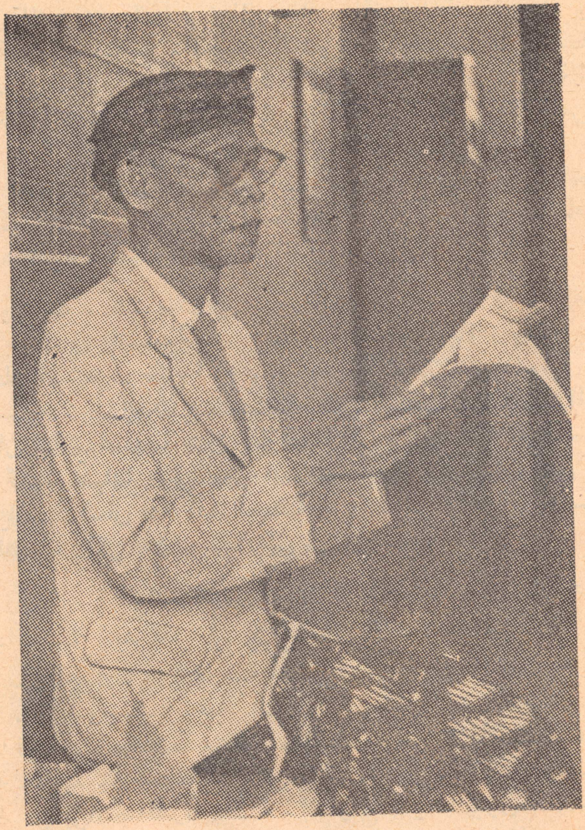
وكثيرا ما وجدت الرقص فى القرى التى زرتها ، فلمست فيه بساطة عمل فنى راق .. وما قدر لأولانوفا ـ نجمة باليه بولشوى ، التى لا تبارى ـ أن تسيطر على مشاهديها يومـا بسحر يفوق سحر هؤلاء الرجال السمر من أهل (بالى) .. والرقص « ضرورة لابد منها » ، تتاح لأى زائر للجزيرة ..

ولقد جعلتنى كراهيتهم للبيض ـ أى أبيض ـ اتوق الى لقاء الشباب الذين قد لا يذهب نفورهم من لونى الى هـذا الحد .. وأتاح لى مدرس شاب ـ فى الخامسة والعشرين ـ زيارة مدرسة تضم فصولا للمرحـلة الاعـدادية ، وفصولا للمرحلة الثانوية وما يعادلها .. واستدعى ثلاث طالبـات ،

كانت احداهن تدرس منهجا للمعلمات .. وقالت انها تتلقى أصول التربية والتعليم ، الى جانب الكرة الطائرة ، وكرة السلة ، والجمباز ، والحرف اليدوية ، والعزف على البيانو ، والرقص المحلى ، وموسيقى « الاوركسترا » الغربية ! .. وقد ظلت ثلاث سنوات تدرس الاندونيسية ، والانجليزية ، ولغة « بالى » ، الى جانب الكتابة « السانسكريتية » . وكان أبوها يدفع ٣٠٠ روبية شهريا – وهو مزارع – مقابل التحاقها بالقسم الداخلى بالمدرسة ، حيث تشترك مع أربع طالبات فى حجرة النوم ، ببيت الطالبات الذى يضم أربعين فتاة .

وقالت « كيتوت راى سوريادى » – وهذا اسم الفتاة التى كانت فى السابعة عشرة – انها التحقت بالمدرسة بعد امتحان استغرق عدة أيام .. وقد بدأت دراستها فى سن الخامسة .. **وأبدت دهشة حين سألتها ان كان والداها يبديان لها عواطفهما حين تفارقهما الى المدرسة ، ثم قالت ان أمها كانت تقبلها حتى سن السادسة .. « ان أمى وأبى لا يقبلان الأطفال بعد السادسة . واخوتى وأخواتى يبدون عواطفهم ، ولكن بأن يربتوا على ذراعى فقط » ! .**

وفى اليوم التالى اجتمعت بناظر المدرسة ، فى حضور الفتيات .. وقد ذكر لى أن اللغتين الانجليزية والألمانية تدرسان اجباريا فى المدرسة الثانوية حتى سن الخامسة عشرة .. أما الاندونيسية ولغة بالى ، فتدرسان ابتداء من المرحلة الابتدائية .. وعندما يتعذر وجود مدرس للألمانية ، تحل اللغة الفرنسية محلها . وكل الأساتذة من الاندونيسيين ، وتتضمن برامج الدراسة : التاريخ ، والشؤون العالمية ، والعلوم الرياضية ، والطبيعة ، والكيمياء ، وعلم النبات ، والجغرافيا ، ومسك الدفاتر ، والحكم المحلى ، وبعض الحرف



مدرس أندونيسى يرتدى ملابس
نصفها أوربى ونصفها أندونيسى

اليدوية والهوايات . وكانت المدرسة تعانى نقصا فى الكتب الدراسية ، وتعانى ضيقا فى المبانى الكافية للقسم الداخلى ، فكان كثيرون من الطلبة والطالبات يأوون الى مساكن خاصة .. ولم تكن السينما مباحة « نظرا لتأثيرها السىء على الصغار » .

تقاليد الحب والزواج فى الجزيرة

● **وهناك** ناحية تلقى فيها (بالى) درسا على أوربا الغربية ، وبريطانيا بوجه خاص ، فى التوفير والاقتصاد فى الأعراس .. فيكفى هنا أن ترد الفتاة بالايجاب ، عن سؤال واحد : « هل أنت راغبة ؟ » .. ثم « تخطف » من بيتها ذات ليلة .. الأمر غاية فى البساطة ، فهى تحمل ثيابها فى « سلة » ، وتمكث مع الخطيب لدى صديقة لثلاثة أيام ، يعلن بعدها الوالدان موافقتهما ، ثم تقام احتفالات مناسبة . فان (بالى) ـ بطقسها الجميل ـ تستغنى عن كل المصارحات العاطفية الحارة تحت ضوء القمر ، فى سيارات أنيقة ، أو فى « كابين » سفينة بحرية ، أو على درجات سلم قاعة للرقص .. ثلاث كلمات تكفى لعرض عملى للخطبة ، وهزة من الرأس تعبر عن قبول الفتاة !

ان أهل (بالى) لا يعرفون المشكلات الحادة والمصطنعة فى سبيل البقاء ، اذ يعيشون فى هذه الجزيرة الناعمة الهادئة ، حيث العمل مكفول ، وحيث الفصول تتوالى فى انسياب مثالى ، والفواكه العجيبة ـ من مانجو وموز وأناناس وما اليها ـ متوفرة بغزارة دائما ، والأرض تتفجر فى غبطة عن أرز كاف ، والمساكن لا تشغل بال أحد ..

ولقد أتاح لى التلكؤ حول محطة « الاوتوبيس » الرئيسية

الوحيدة ، اكتشافات كثيرة ، منها أن بعض الاناث يفقن غيرهن اهتماما بألوان ثيابهن ، وبعض الرجال يشغلون بألوان « الكوفية » التى تعلو رؤوسهم .. والأولاد الذين تجاوزوا سن الدراسة يعاكسون بائعات الحلوى .. والنساء يتجمعن فى حلقات لتجاذب الحديث ، دون أن يوجد بينهن رجل واحد ...

ونظرا لغياب الحاكم العام للجزيرة ، زرت « رئيس البروتوكول » ، الذى قضى خمس سنوات فى الولايات المتحدة ، والذى أوتى جهازا للتليفون فى مكتبه .. وهناك تبينت ايضاحا لمسألة أو اثنتين كانتا تحيرانى : علمت أن (بالى) تنقسم الى ثمانى مناطق سكنية . وكنت مشوقا لمعرفة ما حققه الهولنديون من اصلاحات خلال السنوات الخمسين والثلاثمائة التى مكثوها فى اندونيسيا ، والفترة الأقصر أمدا التى قضوها فى (بالى) ، اذ تغلبوا عليها نهائيا فى سنة ١٩١٤ ... وتبينت أن الاتصال التليفونى بجاكارتا يتوقف فى الساعة الرابعة مساء ، وأن كان مكتب البريد يظل مفتوحا فى الليل .. ومن الممكن ارسال برقيات فى المساء ، اذا كانت ذات صفة عاجلة .. واغتبطت اذ عرفت أن ثمة صحيفة يومية تصدر فى (دن باسار) ، عاصمة الجزيرة .. **واستولى الحرج على صغار الموظفين وكبارهم ، حين سألت عن مدى صحة ما سمعت عن قوانين صدرت بمنع النساء من السير فى الشوارع عاريات الصدور ، وبتحريم تصوير ذوات الصدور العارية .. وأجابونى فى فتور : « نعم »** .. وعندما سألت عما دعا لاصدار مثل هذا القانون ، قيل لى : « كان جنود الولايات المتحدة يفدون ، ويدفعون للفتيات نقودا لالتقاط صورهن ، وكان مسلكهم العلنى يخدش الحياء » . وقد صدر القانون استجابة لطلب من الاندونيسيات ، وبتحبيذ من حكومة اندونيسيا ..

قرية (بالى) الغامضة !

● **وبين** أمتع اكتشافاتي (بالى) اخرى ، أكثر نقاء — بداخل (بالى) — تفخر بحرصها على تقاليد وعادات ترجع الى



بعض أهالي جزيرة (بالى)
يتفرجون على أحد مشاهد مصارعة الحيوانات

ألف سنة مضت .. كانت قرية مغمورة ، تختلف عن بقية هذه الجنة ، وتفضى اليها طرق أقل صلاحية من بقية الطرق ، وتقبع محوطة بالغموض .. قرية لم تفسدها مدنية أندونيسيا ولا مدنية هولندا ، ولم يستطع حتى حكامها ــ المشهورون بروح القتال ــ أن يخضعوها تماما .. انها البقية الباقية من « امبراطورية تينجانان » التى تزعم انها تضم سلالة نقية من الاندونيسيين .. وقد اهتدينا اليها على بضعة أميال جنوب (كارانجازيم) .

وشاهدت ــ والسيارة تحملنى الى تلك القرية ــ عددا من القرى ، جلس رجالها فى وسط الطريق ، وهم يصنعون الحصر .. بينما وقف آخرون يعقدون صفقات خنازير كانت تنقل ببطء الى سلال كبيرة بديعة .. وفى مرات ، كنا نمر بنساء فاتنات من (بالى) يلوحن بعصى هائلة من البوص ، وأمامهن صفوف طويلة من البط تسير بهدوء ونظام وكأنها جنود من مقاتلى الأدغال برح بهم التعب !

وكأنما كان سر قرية (بالى) الأصيلة محوطا بما يصونه : ففجأة ، تنتهى الطريق ، دون أية معالم ترشد لاتجاه .. **ولكنا اكتشفنا الى اليسار ، درجات متوارية ، قادت الى مدخل ضيق يتوسط أسوارا سميكة ، ولا يسمح بالمرور الا لشخص واحد .. وتحيط الأسوار بالقرية من الجهات الأربع « ولا يشجع أهل (بالى الأصلية) الزائرين ، ولو كانوا من بقية أرجاء الجزيرة ، بل يقابلونهم فى ازورار واكفهرار ، وهم يؤمنون بعبادة أرواح السلف القدامى ، ويعينون أناسا ينظفون طرق القرية من الدنس الذى يلحقها من أقدام الغرباء ! »** .

وما أن عبرت الأسوار ، وتأملت الطريق الرئيسية البالغة النظافة ، حتى أيقنت بأن (تينجانان) ــ وهو اسم القرية ــ

بمعزل تماما عن العالم الخارجى .. ولم تكن ثمة ابتسامات ولا عبوس على وجوه القلائل الذين رأيتهم بجوار بيوت حجرية شيدت بمهارة وعناية .. وكانت قسمات وجوههم ـ الدقيقة التكوين ـ تبديهم أقرب من أبناء الطبقة الراقية فى (بالى) الى الهنود . أما لونهم فأقرب الى « الشيكولاتة باللبن » منه الى « الشيكولاتة الخالصة » . وهم يرمقون أى غريب ـ لاسيما اذا كان أبيض اللون ـ بصدود صامت ، كأى قوم مهذبين يستنكرون أن يقتحم عليهم غريب دارهم دون استئذان !.. وكانوا يمرون بنا فى صلف ، وكأنهم يفخرون بانتسابهم الى (تينجانان) ، وقد ارتدى بعضهم (السارونج) ، وهى أقمصة تصل الى الركبة أو تتجاوزها قليلا ، وان صادفنا اثنين أو ثلاثة « ثوريين » ، اذ كانوا يرتدون « البنطلون » !.. **أما النساء ، فيحطن رؤوسهن بالخمار ، ويرتدين « جونلات » ضيقة تصل الى الركبة أو دونها ، ولكنهن لا يرتدين شيئا فوق الخصر ، ولا يبدين محاولة لستر صدورهن أمام الأغراب البيض ، كما هى عادة النساء فى بقية أرجاء (بالى) .**

وبعد لأى ، عثر مرافقى على « دار » شيخ القرية .. ومكثت أسفل درجات السلم ، أتأمل الأشجار السامقة ، ومقر مجلس القرية الأنيق البنيان ، والمطابخ ، وبروج الصلاة ، وأعمدة الغاب الطويلة المتأرجحة أمام كثير من البيوت ، تحمل بقرب قممها مصابيح ورقية ، ودمى للطيور ، لترشد الى طريق الأرواح .

محكمة بلا شرطة ، لم تعقد منذ ٣ سنوات !

● **وبرغم** تواضع القرية بالنسبة لمستويات العالم الخارجى ، فان مهابة « الشيخ » ووقاره وطريقة حديثه كانت أقرب الى التقاليد العريقة لأمير يابانى . وكان

« ناجا تانقو » ــ الشيخ ــ يرتدى صدرية شديدة الزرقة ، فوق قميص خفيف الزرقة ، وقد أحاط رأسه بمنديل أنيق ، وتبدت اساريره جادة ، معبرة ، فيها ود ولكنه يخـلو من الابتسام . **وأخبرنا أنه يرأس القرية منذ حوالى ثلاثين عاما ، وانه وأباه وجده قد ولدوا وعاشوا فى (تينجانان) . وقال ان بالقرية ــ التى تضم ٣٥٠ نسمة ــ مدرسة ، ومحكمة ــ هو رئيسها ــ ولكنها لا تضم شرطيا واحدا .. كما ان المحكمـة لا تنعقد الا لماما ، وكان آخر اجتماع لها قبل ثلاث سنوات ، والنظر فى قضية طلاق !** .. وان كانت القرية لا تقر الطـلاق بوجه عام . وكانت مفاجأة قاسية ان اعلم ان بالقرية ما لا يقل عن عشر طبقات ، أعلاها « البراهميين » .

وكنت ــ طيلة اللقاء ــ أتأمل أظافر الشيخ ، التى يبلـغ طولها بوصتين أو ثلاثا ، وتلك سمة رئيس القوم . ولم يعارض فى أن التقط له بعض الصور ، فلما استأذنت لمقابلة زوجته ، دار بينه وبين مرافقى حوار طويل ، بصوت خافت ــ وكأننى كنت قادرا على فهم ذلك المزيج من لغـة (بالى) واللغـة الاندونيسية ــ وانتهى الأمر باعتذار لأنها « متوعكة » !

وفى تؤدة ، ووقار ، واعتزاز ، أكد لنا الشيخ ــ بلهجـة لا تدع سبيلا لتساؤل ــ ان (تينجانان) لا تعرف الجريمـة ، ولا تختلط ــ اجتماعيا أو اقتصاديا ــ ببقية قرى (بالى) . وهناك أجراس تدعو الناس للصلاة فى منتصف النهار وعنـد المسـاء .

ومع الشيخ ، انطلقنا فى جولة . ولكنه لم يصل معنا الى آخر الأبواب الاربعة التى تتخلل أسوار القرية .. ولعله تسلل عند الأشجار المصونة ، التى تستخدم ــ كمـا يقال ــ لبعض طقوس خاصة وصلوات سرية .

وليس فى (تينجانان) ملكية خاصة للأرض ، كمـا أنه

ليس لأهل القرية أن يفلحوا التربة الخصبة ، لأن هذا لا يليق بكرامتهم .. ويستخدم « الارستقراطيون » أفرادا من القرى المجاورة لأداء أعمالهم .

حفلة راقصة للعذارى !

● **وأخذت** السيارة تبتعد بنا ببطء ، اذ صادفنا مواكب الرجال والنساء وهم يحملون القرابين الرائعة من الفاكهة والزهور الى الآلهة ، وقد ارتدت الفتيات من الثياب ما ترضى عنه أقرب الآلهة وأبعدها .. والعلاقات الجنسية عند أهل (تينجانان) تدنس براءة الشباب . وتقام سنويا حفلة راقصة للفتيان والفتيات ، الذين لم يمارسوا هذه العلاقات من قبل . وتقف الفتيات ساكنات ، وقد ارتدين ثيابا من نسيج ذهبى — اشتهرت به القرية — وتحلين بالحلى الذهبية والأحجار الكريمة . **وتنطلق الموسيقى وتزداد صخبا وحرارة .. ويتقدم الشبان ، فيقترب كل منهم من الفتاة التى تروق فى عينيه .. فاذا لم تعجب به ، بارحت مكانها وسارت نحو الشبان الآخرين .. أما اذا راق لها ، فانها ترقص أمامه . والفتى الذى تتحول الفتاة عنه ، يغدو مثار سخرية القرية . على انه ليس للفتاة أن تتزوج من خارج القرية ، ولا من غير طبقتها !**

و (بالى) هى التحفة التى تريها أندونيسيا لضيوفها الرسميين ، وكبار السياح .. وهى المنتجع الذى يجدد قوى الذين ترهقهم (جاكارتا) ، الحافلة بالتوتر ، المزدحمة بالفقراء وبالجنود الساخطين أحيانا. فان (بالى) بمنجاة من الازدحام والتوتر ، والعناء ، والمرارة التى تفيض بها العاصمة . ومع ان أهلها فى أدنى مراتب الفقر — فى الجمهورية كلها — فانهم لم يغادروها فيروا سواها ، ولم يسمعوا بوجود مكان يفضلها ، وقد جعلتهم عزلتهم من عشاق الرسم ، ومن نقاد الجمال ،

ومن هواة الموسيقى الذين يفضلون عزفها على سماعها ! .. واذ اضطررت لاطالة اقامتى فيها ، لتعذر الحصول على مكان فى الطائرة ، فقد رحبت بالفرصة لأقوم بجولات لمشاهدة الصور والتماثيل والسجاجيد التى ينتجها الأهالى ، ولشراء بعضها .

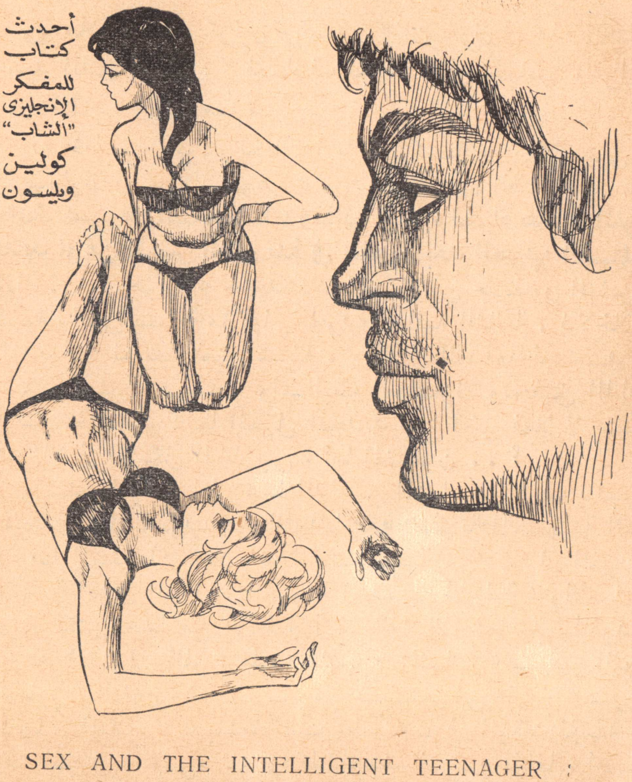
ومهما قيل عن (بالي) ، فهناك ناحية لا يغفلها السياح الدقيقو الملاحظة ، على تباين جنسياتهم ، فى كافة البلاد الاسيوية . تلك هى ان ميزات نسائها - كنساء البلاد الحارة جميعا - تستهوى الأمريكيات اللائى فى أواسط العمر ، واللواتى يجاهدن لمقاومة البدانة ، بالزهد فى الطعام ، والمشى على الأقدام ، والسباحة ، والاقلال من النوم . ونساء (بالى) يعترفن بتعدد الزوجات ، اذ ((يدركن)) جموح فحولة الرجال ، ولا يتذمرن .

وكنت أستيقظ فى (بالى) فى حوالى السادسة صباحا - بسحر نداء الفجر - وأنا منشرح الصدر ، مرتاح النفس .. وقد كانت نزهاتى - على الأقدام - فى الفجر ، وعند الغروب ، على الرمال الدافئة ، حول الفندق ، أشبه بخطوات تقربنى من الجنة .. لا لعدم وجود كثير من الاناس ، وانما نتيجة البهاء الذى تضفيه السماء ، والآلهة غير المرئية ، على الجزيرة .. وكنت أجلس فى شرفة الفندق ارقب رجال (بالى) ونساءها على البعد ، وهم يرتادون الماء ، ويجمعون الأصداف والطمى لعمل التماثيل ، فأشعر كأننى فى عزلة ، برغم أن جيرانى فى الفندق كانوا يشاركوننى الشرفة .

ولعل أحب ما ارتحت اليه ، هو عدم وجود أجهزة الراديو والتليفون والصحف على شاطىء (بالى) ..

الجنس .. والمراهق الذكي

أحدث
كتاب
للمفكر
الإنجليزي
"الشاب"
كولين
ويلسون



SEX AND THE INTELLIGENT TEENAGER :
COLIN WILSON

عرض وتعليق : د. حكمت كامل

هذا الكتاب ..

● **ماذا** يريد « كولين ويلسون » أن يقول فى هذا الكتاب الجديد الذى أصدره ، فصادف نجاحا لدى جماهير القراء ، وكبار النقاد ، فى آن معا ؟

انه خطـوة أخرى يخطوها مؤلف كتـاب « اللامنتمى » و « صعلوك فى حى سـوهو » و « طقوس فى الظلام » نحو **تخطيط صورة واقعية جدا ، ونفاذة جدا ، لحياة هذا « النوع الجديد » من البشر الذى بدأ فى الظهور بعد الحرب العالمية الثانية !** .. وهو نوع جديد كاد ينفصل عن جـذور البشرية القديمة ، أعنى بشرية ما قبل الحرب العالمية الثانية . فالأخلاق « القديمة » لم تعد تعنى شيئا . والآمال القديمة لم تعد ـ تقريبا ـ تعنى شيئا . وأساليب السـلوك وتحقيق الذات صارت مختلفة ، كأنما الجيل الجديد نوع آخر فعلا لا يشبه البشر الا فى الشكل الخارجى ، أما المضمون .. ؟

وأشد ما يلفت نظر هذا الدارس المتصل عن قرب بالجيل الجديد فى عالم الغرب هو تلك الطريقة العفوية المستهينة التى ينظر بها الجنسان للعلاقات الجنسـية ، باعتبـار الغريزة الجنسية أقوى الدوافع الحيوية النفسية الأولية ، والأساس العميق لكثير جدا من الأنظمة الانسانية الاجتماعية والفردية .. وقد استولى الفزع على الكاتب « الشاب » ـ فهو اليوم لم يجاوز الثلاثين الا قليلا ـ وهو يسـتعرض تاريخ البشرية وأصلها « القديم » ، بينما كانت تطحنه ـ فى الوقت نفسه ـ أزمات الجيل الناشىء .. وهكذا وجد نفسـه مكلفا ، أمـام وجدانه ، بمحاولة فكرية جادة ، وواعية ، وواقعية ، للامساك بالزمام قبل أن يفلت .. ومن هنا جاء كتابه هذا عن « الجنس

للمراهق الذكى » ، **وقد جاب فيه متاهات الحياة الجنسية للنوع البشرى بلا تحيز أو تغافل عن الحقائق .. وحلل .. واستنتج .. وتصور نهجا مناسبا للجيل الجديد ، فى عالمه الجديد ...**

وقد نقف منه موقف الخلاف فى هذا الرأى أو ذاك ، أو فى النتيجة النهائية برمتها ، ولكن تصويره للحالة وكأنه يستخدم أشعة « اكس » ، وتحليله لها بمنهج المعمل الكيميائى المحايد ، ونظرته الفنية التى تمتع الذهن وتفتح الآفاق واسعة أمامه .. كل ذلك يجعل لقراءته قيمة فى حد ذاتها : قيمة المعرفة أولا ، وقيمة الانفتاح على جوانب الرأى وقيم الحياة المخالفة لنا ثانيا ، وقيمة الحوار العقلى بين ما نعتقده وما يراه غيرنا ، ذلك الحوار الذى يستطيع وحده أن يثمر حقيقة جديدة حية ..

وكولين ويلسون لا يخفى أهدافه ، فهو ــ ككل كتاب العالم الجديد ــ صريح بلا تهيب . **فهو بعد أن « يفحص » تاريخ العلاقات الجنسية من أقدم العصور « يقفز » الى لجة الواقع ، ويغوص وراء تعقيدات الدافع الجنسى لدى الانسان ، ولا يتردد فى أن « ينسف » الكثير ، والكثير جدا ، من المعتقدات الساذجة التى لم تزل معششة فى أذهان بعض الناس فى هذا الصدد .**

وينتهى بعد جولة « واقعية » فى كهوف النصف الثانى من القرن العشرين الى نظريته الخاصة عن الدافع الجنسى ودوره فى تطوير انسان الغد ...

والآن ، لنترك الكلمة للمؤلف .. لفيلسوف الشباب الانجليزى المعاصر « كولين ويلسون » :

الخيال .. هو الذى يميزنا عن البهائم !

⊙ من المفارقات التى أذكرها أن أحد أعمامى كان يقول لى

دوما أنه ما من انسان يتمتع بصواب الرأى قبل سن الثلاثين .. وهو يعنى طبعا بصواب الرأى ضياع الاصالة الفردية ، واعتياد التفكير على النسق المألوف لدى « الكبار » فى المجتمع ، مما يجعل الفرد مجرد نسخة على وجه التقريب ، لا يقدم وجودها ، ولا يؤخر عدمها !

وكم جرت مناقشات ومناقشات بينى وبين عمى هذا ، وهو يطنب فى قيمة الخبرة و « معرفة الدنيا » اللتين لا تتيسران قبل الثلاثين ، والواقع اننى اكتشفت أن معظم ما لديه منهما هراء وزيف ! **وكانت حملاته الكبرى ضد ملكة الخيال فى الانسان وتحيزا للواقع الجامد الملموس . ولم أستطع أن أدخل فى رأسه ان الخيال هو مملكة الانسان الذكى وموهبته التى تميزه عن البهائم التى تشاركنا الواقع الجامد الملموس .** وقد استطاع بذلاقته ووقاره وسمته المحترم أن يجعلنى أشعر أحيانا بالبلاهة والغباء ... ومع هذا ظل دافع غريزى فى أعماقى يكافح ضد هذه الحكمة السامية التى يبشرنى بها عمى ، حتى لقد شعرت أنه من الخير لى أن أنتحر لو أن العالم كان كما يصوره لى حقا ! .. ولكن هذا التصوير كان يتردد صداه على لسان الكثيرين جدا من « الكبار » المحترمين ، المعتزين بسنهم وتجربتهم . وهأنذا قد بلغت ـ وأنا أكتب هذه الصفحات ـ سن الرابعة والثلاثين ، ومع ذلك لم أكتشف بعد روعة التجربة الواقعية . وانه ليسعدنى أن أقرر أن عمى الفاضل وجميع من اليه ، انما يخدعون أنفسهم ! فالعالم يحير الكبير كما يحير المراهق تماما ، وكل ما هنالك ان الكبار يحسنون اخفاء حيرتهم تحت قناع من الرزانة والحصافة الخادعة ! وانهم ليعلمون انه قد أسقط فى أيديهم ، ولكنهم يجتهدون فى نسيان هذه الخيبة وتجاهلها وهم يواصلون حياة لا يفهمونها ، ولكنهم يحملون أعباءها !

ولست أنكر أن التقدم فى السن له فوائد ، أهمهـا أن سخونة الدماء تقل ، مما يسهل الامساك بزمام الانفعالات وحسن سياستها ، وأكثر ما تكون هذه السياسة باسكاتها طوعا أو كرها ! وثمة فائدة أخرى للتقدم فى السن ، هى قلة الاكتراث بالآخرين . **فحينما كنت مراهقا كان يزعجنى جدا الا يرد على انسان أكلمه ، أو يتجاهلنى ، فيحمر وجهى كاشارة المرور ، ويخيل الى أن جميع الناس يحملقون فى بزراية . أما الآن فلا يكاد ذلك يحرك فى ساكنا .** وكذلك عندما كنت مراهقا كان النقاش مع المغفلين والحمقى يتخذ أهمية جسيمة ، وتثور أعصابى . واذا رمانى من أناقشه بنقائص أعلم يقينا انه لا أساس لها ، أجد جانبا من سريرتى يتساءل : أتراه على حق وأنا لا أدرى ؟ .. وبعد أن كبرت لم يزل الحمقى يزعجوننى كما يزعجنى الذباب ، ولكنهم لم يعودوا يمارسون على نفسى أدنى سلطان ! ومع تقديرى لكل هذا أؤكد ان المرء لا يزداد حكمة بتقدمه فى السن ، حتما .. بل الأرجح أنه يزداد غباء ، وبلادة حس !

الفجوة .. بين الكبار والمراهقين !

● **وقد** يبدو هذا جائرا ، فهناك كبار « معقولون » ولا بأس بهم مطلقا . ولكن ليس هذا ما أرمى اليه ، وانما الذى أعنيه أن الأطفال والمراهقين لديهم « شىء ما » فقده معظم الكبار بلا رجعة ، بحكم أنهم ــ أى الكبار ــ قد تقبلوا نوعا من الهزيمة ، وتصالحوا مع الحياة على هذا الأساس ..

وأنا أعترف أن نسبة الأغبياء بين المراهقين تكاد تقارب نسبتهم بين الكبار ، ولكن الأذكياء حقا من المراهقين يتساوون فى شىء واحد : انهم يجدون الحياة أمرا شاقا ، لأن مشاعرهم أو انفعالاتهم تسبب لهم الاضطراب والصراع الداخلى ، وهى انفعالات نشطة على تناقضها ، لا تريد أن تسلس القياد أو

« تتفاهم » مع غيرها تفاهما يؤدى الى التصالح وسكينة النفس . **ومن تحت هذا الخليط المضطرم ، بركان من الطاقة الذهنية يريد أن يشق طريقه وسط الركام الى وضح النهار . ولعل هذا الصراع هو السر فى توقد أذهان أولئك المراهقين ، ذلك التوقد الخارق للمألوف عند الكبار ..**

ولكن للأسف الشديد يتحتم على أولئك المراهقين المتوقدين أن يكافحوا « مؤامرة الكبار » ضدهم ، بالاضافة الى مشكلاتهم الانفعالية الخاصة . وكلما كان الكبار أشد جمودا وغباء ، كانت مؤامرتهم ضد اليافعين أشد ضراوة . فالغباوة دائما من وراء حب السيطرة والتحكم ، والتلذذ بافساد المسرات . ويجب ألا ننسى أن الكبار يحسدون الايفاع على شبابهم وحرارة دمائهم . وهم يطالعون فى صحفهم عن سهرات المراهقين الحمراء التى تمتد حتى الصباح وتنتهى بالعربدة الجنسية ، فيخيل اليهم أن المراهقة الحديثة شىء من هذا القبيل باستمرار ، ما بين رقصة الروك أند رول ، أو التشاتشا ، أو التويست ، والشراب ، والممارسة الجنسية التى يخلع فيها الجميع العذار . وانى لأذكر سهرة عجيبة من هذا النوع حضرتها منذ سنوات قلائل ، وكان الحاضرون تتراوح أعمارهم ما بين السادسة عشرة والستين . وكان المفروض أن يغادر من تجاوزوا الخمسين مكان الحفل فى موعد مبكر نسبيا (أعنى عند منتصف الليل مثلا) لولا أن احدى الفتيات سكرت وخلعت ثوبها ثم غابت عن الوعى تماما فوق الأريكة من غير أن ترتديه . وحدثت أيضا بضع أشياء أخرى غير محتشمة الى حد ما من هذا القبيل ، وكانت النتيجة أن من تجاوزوا الخمسين ظلوا ساهرين فى الحفل الى الرابعة صباحا ، والنعاس بطبيعة الحال يكاد يقتلهم ، الا أن عيونهم ظلت مفتوحة كالفناجين من فرط الفضول ، آملين أن تبدأ

« العربدة » الحقيقية فى أى لحظة . وكم بدت عليهم خيبة الأمل المضحكة عندما جروا أقدامهم فى النهاية مثل أى فرد منا منصرفين الى بيوتهم دون أن يحدث ما توقعوه . ومما يجدر ذكره ان الفتاة التى خلعت ثوبها وجزءا من ثيابها الداخلية كانت سنها فوق العشرين ، أى تجاوزت مرحلة المراهقة . والواقع اننى لم أصادف مراهقة يمكن أن تتغلب على حيائها بحيث تخلع ملابسها وسط حفلة صاخبة . ولعل تجربتى محدودة ، ولكن بفرض وجود مراهقات « قليلات الحياء » الى هذه الدرجة من العلنية ، فنسبتهن على كل حال أقل بكثير مما يظن المتقدمون فى السن ..

والناس ينسون عادة أن الجديد مستمد دائما من القديم . فما من شىء فى شخصية الفتى الا وهو مستعار من هذا أو ذاك منذ طفولته ،عن طريق المحاكاة . الا أن كل واحد تقريبا يعتقد أن شخصيته أصيلة ، مع أن حركاتنا وألفاظنا ، وطريقة مشينا ، بل وأفكارنا ، مستقاة من أشخاص لعلنا نسينا معظمهم بمضى الوقت . ومهما بلغ من اختلاف نظرتك الى العالم عن نظرة والديك ، فأنت ترى العالم أساسا من خلال عيونهما ..

ولكن ما علاقة هذا كله بالجنس ؟

ان الجنس من أقوى الدوافع فى السلوك الانسانى ، وأشدها سيطرة على توجيه حياتنا . ولا ريب فى أن الجنس بالنسبة لتسعة وتسعين فى المائة من البشر البالغين يعتبر أعمق وأقوى تجربة تمر بهم . وهو مصدر أعنف انفعالاتهم ولذاتهم . ولكنهم للأسف لا يدركون معنى هذه الحقيقة ادراكا كافيا . ولست أبالى ما يقول عنى النقاد من افراطى فى الاهتمام بالجنس ، فأنا أعترف بهذا طائعا فخورا . وأعتقد أن الجنس والتجربة الجنسية من الموضوعات القليلة التى ينبغى أن يعنى بها جميع

الأذكياء عناية تامة . بل ما من موضوع فى نظرى على وجه الأرض أهم من هذا . وأنصحك أن تتجاهل كلام الحمقى الذين يقولون دائما أن الجنس يجب أن يبقى محبوسا فى أضيق الحدود . ونظرة واحدة الى هؤلاء تقنعك بأنهم ما كانوا ليصبحوا جامدين بلا طعم ، لو أنهم خرجوا على شعارهم البالى !

وبصدد الجنس ، ذهب « برنارد شو » — فى مسرحيته الشهيرة « الانسان والسوبرمان » — الى أن المرأة هى التى « خلقت » الرجل ، أى هى التى ابتكرته لتنتج شيئا أفضل مما يستطيع النظام الجنسى المفرد أن ينتجه . ولكنها أخطأت حين خلقت كائنا صارت كل غايته منها انجاب الأطفال ! .. ولأنه لا يحبل ولا يلد ، وجد الفراغ لاختراع الحضارة من غير أن يستشيرها فى ذلك ، لأنها مشغولة برعاية الأولاد ، أو انجابهم ، أو خدمة البيت ، وبذلك صار الرجل هو « الجنس المسيطر » !

هذا الكلام قاله برنارد شو فى سنة ١٩٠٢ ، فلم يأخذه أحد على محمل الجد ، واعتبروها نكتة من فكاهات شو . أما الآن ، بعد تطور العلم ومكتشفات علوم التناسل ، فالأمر يبدو أقرب للجد ..

جولة فى تاريخ الجنس

● **ولنلق** الآن نظرة على تاريخ الجنس ، أو على الأصح لنلق نظرة على الدور الذى قام به الجنس فى تاريخ البشرية .

والأرجح أن الانسان الأول لم يكن يبالى كثيرا بالزواج ، ولا بالاخلاص ، ويقول العلامة « باخوفن » : « كان الانسان الأول يشبع غريزته الطبيعية على نحو ما يفعل الحيوان الأعجم ، بدون رابطة شخصية دائمة مع انثى بعينها » — ويجب ألا يغيب عن بالنا انه ما من أحد كان يعلم أن الاتصال الجنسى له صلة بانجاب الأطفال ! — **وعلى هذا كان أقوى**

الذكور أو أمهر الصيادين يحظى بشبه احتكار لأشد نساء القبيلة جاذبية ، على نحو طبيعى جدا ، مثلما أن من حقه اختيار أفضل قطع اللحم من الفرائس التى يصيدها ، دون أن يتوقع أحد منه أن يختار قطعة معينة من اللحم كل يوم ، وبذلك كان يتغير فراش الرجل وفراش المرأة كل يوم ، وتتوزع النساء الباقيات ـ بعد اختيار « الزعيم » ـ على بقية الصيادين ، كل حسب قوته ومهارته ومكانته ، بحيث تبقى الحثالة للحثالة ! .. أما الأطفال فكان المظنون أنهم يأتون بفعل السحر ، أو هبة من الآلهة . (ولم تزل فى استراليا عشائر بدائية الى اليوم لا ترى أى صلة بين الاتصال الجنسى ونعمة النسل !) .

الغيرة لم يكن لها وجود !

● **وفى** مجتمعنا تعتبر الغيرة شيئا مفروغا من أمره ، مسلما به ، بحيث نجد من العسير علينا أن نفهم كيف كان البدائيون مجردين منها . ومع هذا لم يزل الاسكيمو حتى اليوم يمارسون « أقراض زوجاتهم » لضيوفهم . فاكرام الضيف عندهم لا يتم الا بأن ينام مع زوجة مضيفه . والكل ينامون فى كوخ واحد . وفى الصباح يسأل الزوج زوجته هل كانت شهية الضيف مفتوحة لها أم لا . **وتعتبر اهانة كبرى ألا يكون قد أقبل على « الوليمة » الجنسية بشهية كافية ! وأما بعض قبائل استراليا البدائية فيمارسون الى يومنا هذا تقارض الزوجات فيما بينهم ، علامة على الألفة والترابط ، كما يتبادل الأصدقاء والأقارب منا الهدايا وباقات الورد فى المناسبات !**

وهذا يدل على أن الغيرة مسألة اجتماعية وليدة العرف ليس الا ، وان كنا لا ندرك ذلك للوهلة الأولى . وفى السنوات الأخيرة توصل علماء الحيوان الى أن السلوك الجنسى فرع من فروع الدافع الاجتماعى والاقليمى . فأقوى ذكر فى قبيلة من

القرود يضيق بأى محاولة لسرقة احدى زوجاته ، لأن ذلك يعتبر تحديا لسلطانه الاجتماعى ، لا لأنه يثير غيرته الجنسية . ومراهقو الاسكيمو يلعبون فى الشتاء لعبة يسمونها « اطفاء الأنوار » ، ذلك انهم يطفئون المصابيح واحدا بعد واحد ، وفى الظلام التام يختار الأولاد والفتيات شركاء ليلتهم اختيارا أعمى وبالصدفة المحضة ، ويمتلىء الكوخ بالأصوات المتصاعدة المعبرة ... ولاشك أن اطفاء المصابيح واحدا بعد واحد انما الغرض منه تصعيد الاثارة الجنسية بخلق حالة ترقب غامضة .

وهذا النوع من السلوك قد يكون طبيعيا جدا بالنسبة لأناس يعيشون « على الطبيعة » ، وهو دليل على أن أسلافنا الاقدمين لم يعرفوا شيئا من النظم التى نسميها نحن زواجا . فعندما يكون الناس فى حال البداوة يكونون واقعيين : يخطفون ما يقع تحت أيديهم حيثما اتفق . أقرب صيد . وأقرب ثمرة، وأقرب سمكة . وأقرب امرأة . ولكن بتقدم الحضارة ونشأة الزراعة المستقرة اتسع الوقت لأحلام اليقظة . ولتزجية الفراغ ودفع السأم بدأت الحروب . ولتنظيم الاستقرار نشأت الأنظمة والمؤسسات الاجتماعية ، ومنها الزواج . وهكذا بعد أن كان الكل قبيلة متآخية تتقاسم الخيرات والنساء ، بدأ التدرج فى المقامات الاجتماعية . وبدأت « الملكية » فى الظهور ، سواء فى شكل ملكية المراعى ، أو الأرض الزراعية ، أو النساء . وسرقة الزوجة تعتبر اهانة وتحديا للكرامة ، لأنها مجرد « ملكية » للزوج . ولذا نشبت حرب طروادة الضروس التى دامت عشر سنين عندما أغوى « باريس » هيلانة وهرب بها الى طروادة .

الجنس عند الاغريق .. والرومان

● **وعلى** ذكر الاغريق ، حملة شعلة الحضارة والفكر

الرفيع ، نجد أن المرأة عنـــدهم لم تكن « كل » الجنس . فالجنسية المثلية (أو الشذوذ الجنسى) كانت منتشرة جدا ومن الأمور العادية المسلم بها . فكل رجل متزوج له امرأة لانجاب الأطفال . أما الحب فمسألة أخرى تماما يتكفل بهـا « صديق » جميل صغير السن من الفتيان المرد . وكثيرا ما كان الرجل يكتفى بالصـديق الأمرد ولا يفكر فى الـزواج ومسئولياته وشرذمة الأطفال التى تنتج عنـه . لذا كان والد الفتاة يغرى الرجال بالزواج من ابنته بتخصيص رأس مال أشبه بالطعم لاستدراج الرجل الى مصيدة الزوجيـــة ! .. **ومن هنا نشأت « البائنة » أى المهر الذى تدفعه الزوجة للزوج كى يرضى بها . ثم يصبح مكان الزوجة هو البيت ، وليس لها أن تتدخل فى صلات زوجها الغرامية بصـديقه الصغير ، ولا يخطر ببال أحد أنها « شريكة حياة » حقا لزوجها . بل وللزوج أن تكون له عشيقات من الراقصات أو بنات الهوى أو الغانيات وليس للزوجة أن تعترض .** واذا كان الزوج من المرموقين كان والد أى غلام يعتبرها علامة شرف أن يقع عليه الاختيار ، ذلك ان الرجل فى هذه الحالة كان يعتبر نفسه بمثابة والد للغلام يرعاه ويدربه على شئون العمل والسياسة والمال والعـلم ، وينمى عقله وعواطفه فى مقابل التمتع الجسدى بمحاسنه . ولا يلحق بذلك أدنى خزى ! .. أما الفتاة فكانوا يفرضون فيها الاحتفاظ ببكارتها الى أن تتزوج ، وأن تظل مخلصة وفيـــة لزوجها بلا قيد أو شرط !

واذا انتقلنا الى الامبراطورية الرومانية وجدنا الشـذوذ الجنسي على أشده ، وبابتذال يجرده من العواطف الخياليـة المعهودة عند الاغريق . وكان الزواج عند الرومان نظـاما اجتماعيا دينيا ، كل الغرض منه انجاب النسل ، ومن هنـا كانت عفة المرأة شيئا هاما . وكانت عقوبة كل من يغوى امرأة

متزوجة بالغة الصرامة . وفى الوقت نفسه كان البغاء مسموحا به ومعترفا به اجتماعيا لدى الرومان ، ولدى سائر الأمم القديمة . ولذا كانت المرأة فى الحضارات القديمة على ثلاث فئات : الزوجات المحصنات العفيفات أو الحرائر ، والبغايا ، والمحظيات أى العشيقات الخصوصيات .

وهذا يؤدى بنا الى التمييز فى وظائف الجنس بين أمرين : اللذة وانجاب الأطفال . وتحت اللذة يندرج العشق والشذوذ الجنسى . وتحت انجاب الأطفال يندرج الزواج والسلوك الجنسى السوى . ولم تكن الزوجة أكثر من ربة بيت وماعون للنسل فى أغلب الأحيان .

نظرة المسيحية الى الجنس

● ثم جاءت المسيحية فكانت أول صيحة تهيب بالانسان انه ليس جسدا فقط ، وليس حيوانا بهيما ، انما هو نفس خالدة . وكان الناس قد تقززوا من الأجساد وشهواتها ، وصاروا متهيئين لدعوات الروح ، وبذلك حدث رد فعل عنيف ضد المادية والشهوانية . كما كانت المسيحية ايذانا بالتحرر من تعصب اليهود وضيق أفقهم . والحقيقة أن بولس الرسول هو الذى أضفى على المسيحية اتجاهها المعادى للجنس بصراحة ، فهو الذى قال : « من لم يستطع العفة فليتزوج . لأن الزواج أفضل من الاحتراق » ، وبذلك ربط بين الصلاح الحقيقى والابتعاد عن كل نشاط جنسى . والحقيقة أن العداء للجنس كان عداء للوثنية التى كانت تجعل شعائرها مختلطة بالجنس والاباحية فى أعيادها ، مثل عيد باخوس اله الخمر .

وها نحن فى عصرنا الحالى أشبه بالوثنيين القدامى فى سلوكنا الجنسى الاباحى ، وبذلك صرنا بعد ألفى سنة من ميلاد المسيح متقززين من الفساد ومن العالم ، وبحاجة الى رد فعل جديد يرد اعتبار الروح . وهاهى مدنيتنا تتداعى من الداخل

وينخرها السوس كما تداعت المدنيـة الرومانيـة التى كانت مثلنـا مغرقة فى المـادية وشـهوات الجسد . ألم يتزوج « نيرون » رسميا من غلام ألبسوه ثياب امرأة ، وتم ذلك فى حفل بالغ الأبهة ! ألم يقترف نيرون أيضا الفسق مع أمه بحثا عن نشوة جنسـية من نوع طريف ؟! ومثله كان الامبراطور « تيبريوس » و « كاليجولا » .. ومن شاء المزيد من التفاصيل المذهـلة فليقـرأ تاريخ الاثنى عشر قيصرا .. ولست أشك فى أن مؤرخى المستقبل سـيقولون عن عصرنا مثـل هذا ، وسوف يستشهدون على انهيـار الأخلاق بكتب من قبيـل « لوليتا » ، و « عشيق الليدى شترلى » ، و « فانى هيل » وروايات جيمس بوند . والحقيقـة أن الجنس فى عصرنا الحديث لم يعد وثيق الصلة بالنسل ، بل بالعكس ! كم من الاحتياطات تتخذ ضد النسل بفضل العلم الحديث ، توقيا لكارثة الانفجار السكانى . وأما التفنن كله والتنويع والشذوذ فبقصد اللذة ! والمرأة فى عصرنا تنافس الرجل فى الاباحيـة الجنسية ، لأنها أسعد حالا من جدتها الرومانية والاغريقية ، بسبب أقراص منـع الحمل واللوالب والطواقى الهولنـدية وما أشبه من هذه المبتكرات التى أعطت المرأة كل فرصة بدون ذعر من العواقب .

وأما جرائم الانحراف والاغتصاب فقد تضاعفت منـذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وهى تزداد كل سنة عن سابقتها فى أمريكا بمقدار ١٠ ٪ . وليس الحال فى انجلترا وفرنسا بأخف منه فى أمريكا .. وتدخل فى الصورة جرائم الادمان على أنواع المخدرات .. وبنفس النسبة تزداد معدلات الاختلال العقلى ، والانهيـار العصبى ، والانتحـار .. وهذا كله يؤيد ما ذهب اليه الفيلسوف « اشبنجلر » من أن « حضـارة الغرب تنهار ، بعد أن أدركتها الشيخوخة بكل عللها » ، وان

كنت شخصيا لست متشائما الى هـذا الحد ، لأن للعملة وجهـا آخر .. ويجب ألا ننسى أن عصر الفضـاء والقنبلة الذرية يقدم تحديات للقيم القديمة ويفضى بنا الى نوع جديد من البربرية .. ومع هـذا ففى الصين وروسيا ينظر الى التحلل الجنسى نظرة منكرة ، ولا يعتبر أمرا مسلما به على الاطلاق . فسلوك الناس هناك منظم وهادف ، مثل كل شىء فى حياتهم العامة والخاصة ...

فى اليابان : لا حياء فى الجنس !

● **ولكن** بالقرب من روسيا والصين توجد اليابان . وفى اليابان يتعاملون مع الجنس بطريقة مختلفة تماما ، وبحرية يكاد يعجز عن فهمها أهل الشرق والغـرب على السـواء ! اذ يبدو أنه لا ارتباط بين الجنس والخجل أو الحيـاء لدى اليابانيين . والذكر فى اليابان هو السيد غير منازع . بحيث يعتبر الغلام الصغير أعلى قدرا بكثير جدا من أمه وشقيقاته ، حتى وهو فى المهد !.. **كما أن علاقات الرجل الجنسية خارج الزواج أمر مفروغ منه . وما من زوجة تجسر على الاعتراض على زوجها لأن له خليلة ، ولا سيما اذا كان ثريا ، أو ذا نفوذ ومقام مرموق .**

وحيث أن ابن الأسرة هو موضع أملها واعجابها ، فالغالب أن يتم تعريفه بأساليب الجنس فى سن مبكرة ، فيأخذه أبوه بكل وقار وهدوء الى ماخور بمناسـبة عيد ميلاده ، بعـد بلوغه مباشرة ! ومن العجيب الى جانب هذا أن اليابانى ــ الذى لا يعرف التحريم أو الكبت فى أمور الجنس أو الخمر ــ يعيش حياته وتصرفاته كلها فيما عدا ذلك مكبلا بقيود واحتشـام وتقاليد تكفى لدفع أى غربى الى الانتحار !

الجنس ، والاجهاض ، والسجون .. فى السويد

● **وننتقل** الى أقصى الشمال : الى السويد ، فاذا الجنس مسألة طبيعية سهلة يتعامل معها الناس بكل بساطة .. والاجهاض هناك قانونى ، وله مستوصفات مجانية منتشرة .. والرقابة على المطبوعات ضئيلة جدا . ولذا فعندما نشرت هناك رواية « لوليتا » التى كانت من أوسع الكتب انتشارا فى انجلترا وأمريكا ، لم تحقق رواجا ملحوظا . والسويد من أرقى البلاد ، وادارتها الحكومية على جانب عال من الكفاءة ، وكذلك اقتصادها . والدخول عالية جدا . والترف عام . وليست هناك بطالة . وسجونها مفتوحة ، أشبه بدور الضيافة الفاخرة ، وهى أفخر بكثير من الفنادق العادية فى انجلترا . والنتيجة أن الزنا والانتحار أصبحا هوايتين قوميتين فى السويد ! **ولكن الملاحظ أن انجلترا وفرنسا وأمريكا وألمانيا وكل عالم الغرب يزداد قربا من النمط السويدى عاما بعد عام ، ومن واجب الجميع التنبه لما يعقب ذلك من النتائج منذ الآن !**

والسؤال الكبير الذى يواجهنا الآن : ماذا بعد ذلك ؟

مشكلة الشذوذ الجنسى

● **ان** الشذوذ الجنسى ، وكل الانحرافات الجنسية على العموم وعلى رأسها الجنسية المثلية ، لا يمكن أن يكون موضوعا مستحبا . ولكن ما الحيلة وهو غير منفصل عن النشاط الجنسى البشرى من أقدم العصور ، وهو اليوم يأخذ طريقه الى العلانية واكتساب الحقوق القانونية فى كثير من البلاد المتحضرة ؟ **لابد اذن من فهمه ، كى نتوصل الى مقاومته !**

ويجب قبل كل شىء أن نفرق بين المألوف وبين الطبيعى . أى بين ما هو من املاء التعود وما هو من املاء الغريزة . وفى

الجنس نجد الدافع الجنسى غريزة لا عادة . وهـذا الدافع أنانى بالضرورة فى جوهره ومصدره وليس اجتماعيا . فهو كالحاجة الى الطعام ، والى الدفء والى النوم . والأعضاء التناسلية أشبه بمراكز تجميع شحنات من الطاقة الجنسية لابد لها من تفريغها ، كأنها بندقية محشوة فى انتظار ضغطة على الزناد ! ويصدق هذا على الحيوان وعلى الانسان معا ، لأنه يحدث للجانب « الحيوانى » من الانسان .

ولكن ثمة فرقا بين وسائل الحيوان ووسائل الانسـان : فعند الانسان لابد من شخص ننجذب اليه فنختاره للضغط على الزناد ! ولكن هذه المشكلة ليست قائمة لدى الحيوان ، وأنثى الحيوان « تطلب » الذكر فى وقت الحاجة الى التلقيح ، أى انها تطلق رائحة نفاذة من أعضائها التناسلية لا يستطيع الذكر مقاومتهـا .. فى حين أن البشر ليست لديهم هـذه الوسـيلة .

ومن جهة أخرى اذا تجاهلنا الحافز الجنسى لدى الانسان وجدناه مستقلا عما نسميه « الحب » . بل ان ثمة اعتبـارا قويا للتحريم والمحرمات يؤثر أكبر الأثر فى النشاط الجنسى . فالجنس يتأثر ويهيج بدافع « الغرابة » لا بدافع « الألفة » . بل ان الألفة تضعف الحافز الجنسى . والغرابة أشد ما تكون توفرا فيما نسميه « المحرمات » . وهـذا الاعتبـار كاف لتوضيح أهمية ومنشأ الانحرافات وأنواع الشذوذ الجنسى . فكل شىء يتوقف هنـا على ما تراه محرما أو تحس بغرابتـه وتحريمه ، فان وجد من يعشق أخته جنسـيا ، فلأنه يحس فيها غرابة تجعله لا يألفها . أما معظم الرجال فلا يجدون فى اخواتهم هذه الغرابة ولذا لا يفكرون فيهن جنسـيا . وكذلك الحال بالنسبة للشذوذ الجنسى أى المثلية الجنسية . فالرجل الذى يجد غيره من الرجال مثله تماما بلا غرابة لا يميل اليهم

جنسيا ، أما من يجد فيهم غرابة تمنعه من أن يألفهم فيتجه اليهم بميله الجنسى . وكذلك اذا وجد فتى أثناء البلوغ وأوائل البحث عن مخرج أو منفذ لحوافزه الجنسية فى مدرسة داخلية مثلا يكتنفها جو تحريم شديد للهو الجنسى مع زملائه ، فهذا التحريم كاف لتمسكه بهذا الاتجاه . ومتى تم استهواء الخيال بفكرة أو صورة أو اطار معين للغرابة والتحريم ثبت ذوق الشخص غالبا عند هذا الاتجاه بصفة دائمة .

ولكن الى جانب هذا الشذوذ الجنسى المكتسب يوجد بلاشك شذوذ جنسى ذو أصل جسدى بحت : **فاذا كانت الهرمونات هى التى تحدد جنس الشخص ، فهمنا كيف يولد ذكر فيه ميل جسدى شديد للسلوك الانثوى . والعكس بالعكس ، أى تولد انثى فيها ميل جسدى شديد للسلوك المذكر . ولا ريب فى أن العلماء سيحددون فى يوم قريب بالضبط ما الذى يحدث الشذوذ الجنسى فى هؤلاء الشواذ بالفطرة والتكوين ، لا بالاكتساب ...**

وهناك فريق من الناس يلتمسون الأعذار لـ « المصابين » بالشذوذ الجنسى ، ويقولون انه لا ضرر منهم على أحد ، وانهم قد يكونون مؤهلين للنجاح كغيرهم من « الطبيعيين » . **ولكننا فى مقابل هذا لا يمكن أن نتصور عباقرة من طبقة أو طراز « بتهوفن » أو « نيوتن » أو « برنارد شو » من ذوى الشذوذ الجنسى . فهذا الصنف من الرجال الشواذ لا يكون منهم فلاسفة وعلماء افذاذ ، لأنهم لا يتمتعون بالولاء الكامل الموضوعى للمعرفة . انهم دائما ذاتيون مغرقون فى الذاتية .. كالنساء !** ولكن اتجاه العصر الحاضر على العموم الى رفع الحظر عن الشذوذ الجنسى . فما أبعدنا عن الروح التى هدمت حياة ومستقبل أوسكار وايلد لعلاقته باللورد دوجلاس الشاب ! ولست أستغرب أن يأتى قريبا يوم يوضع فيه بين البيانات الشخصية فى دليل المشاهير كلمة « مثلى الجنسية » ،

بنفس الوصف الموضوعى الذى يحدد به لون العينين والشعر ، والكلية التى تلقى فيها علومه ، ومحل ميلاده ! ..

أسطورة نشأة الجنسين ، فى ((مأدبة)) افلاطون !

⊙ **ويجرنا** حديث المثلية الجنسية الى نوع آخر من الشذوذ أو الانحراف ، وهو غرام بعض الرجال بارتداء ملابس النساء ، أو قطع منها داخلية . وقد يرتبط هذا بالجنسية المثلية ، ولكنه أحيانا لا يرتبط بها — فمفتاح هذا الانحراف هو الولوع بالغرابة والتحريم كمثير للجنس واللذة الجنسية . **وقد يلقى بعض الضوء على هذا الانحراف وما اليه ما يذكره أفلاطون فى محاورته المشهورة ((المأدبة)) — على لسان أريستوفان المؤلف المسرحى المشهور بكوميدياته الخالدة — من أنه ابتدع أسطورة فكاهية عن نشأة الجنسين ، ومؤداها انه كان فى البداية جنس واحد ، وان البشر كانوا موجودات كروية ذات أربع أذرع ، وأربع أرجل ، ورأسين ! بيد انهم صاروا كائنات بالغة القوة بحيث أثارت قلق الآلهة ، فاتفقوا على طريقة لتقليل قوتهم ، بأن يقسموهم نصفين . ومنذ ذلك الحين وكل نصف يبحث عن نصفه الآخر الحقيقى ، فصرفهم ذلك عن تحدى الآلهة وتهديد سلطانهم !** وهذا يفسر جبروت الحافز الجنسى وسلطان الحب على تصريف مقادير البشر ومصائرهم . ولكن هذا قد لا يفسر الانحرافات الجنسية لأول وهلة الا اذا تذكرنا أن عملية القسمة قد تجور فتضع مزيدا من الذكورة فى الأنثى ، ومزيدا من الأنوثة فى الذكر ... !

ويجب ألا ننسى ان من بين ألوان الحافز الجنسى لون خاص ((بحب الذات)) ، أى عشق الفرد لجسده الخاص ، بحيث يثيره منظره ويهيجه . وهذا ينشأ عن التربية الجنسية الفاسدة التى تغرس فى نفس الطفل أن جسده العارى

« عيب » . ومن هذا التحريم تنشأ الاثارة الجنسية فيما بعد ..

ويأتى بعد ذلك فى قائمة الانحراف « الفتيشية » أى التهيج الجنسى لمرأى أو ملمس قطعة ملابس داخلية أو خارجية تقترن فى الوعى بالالتصاق بأجساد الجنس الآخر عادة . وينشأ هذا عن اقتران تلك القطعة بأول تجربة جنسية ، بحيث يغنى « الأثر » عن الفعل نفسه ، ويصبح منبها كافيا ومستعيدا للذة . وكان هذا النوع منتشرا فى القرن التاسع عشر بالنسبة للمشدات (الكورسيهات) لأن النساء جميعا كن يلبسنها . أما الآن وقد بطل استعمالها ، فقد اندثر تقريبا هذا النوع من الانحراف ، وحل « البكينى » محل الكورسيه . والموضوع عموما يتوقف على التجربة الجنسية الأولى وما يقترن بها من ثياب المرأة . وهذا يختلف باختلاف كل حالة على حدة .. والمهم أن « الأثر » يصبح أهم لدى المنحرف من العمل الجنسى نفسه ..

وهناك حالات أشد انحرافا وأخطر بكثير من هذا كله ، تصل الى حد الاجرام الجنونى ، وهى حالات من يقتلون النساء – أو الرجال – اللذين يمارسون معهم الجنس ، بعد انتهاء المتعة . ولعل أدق وصف لهذه الحالات ما ذكره اميل زولا فى روايته « الحيوان البشرى » عن بطله : « كان يريد أن يمتلك المرأة ، الى درجة القضاء عليها ! » . وهذا يصدمنا لأننا نقرن الجنس بالحب ، والحنان ، والرقة ، والتدليل ، والرغبة فى حماية المرأة التى نحبها .. مع أن علاقة الجنس المحض الصريح فى جوهره الحقيقى هى علاقة الذئب بالشاه . انه افتراس نحوله بالتهذيب والرياضة النفسية والخيال الى حب وحنان وحماية . وهكذا يتدرج الجنس من الأغتصاب والعدوان الى الحنان .. ولكن آثارا من العدوان تظل كامنة تحت هذا الحنان .

السادية : أسوأ أنواع الانحراف

● **وهذا** ينتهى بنا الى أسوأ أنواع الانحراف ، وأكثرها اثارة لاهتمام من يدرسون السلوك البشرى ، أعنى السادية . والسادية تشتق اسمها من « الماركيز دى ساد » الذى ولد بفرنسا سنة ١٧٤٠ . والكثيرون يتصورونه وحشا يجتمع فيه مزيج من « فرانكشتاين » و « دراكولا » ، أحمر العينين بارز الأسنان !.. وهذا خطأ يضارع تصور الناس لكازانوفا على غرار نجوم السينما وسامة وفتنة ، مع أنه كان — أى كازانوفا — فى الواقع نصابا قبيح الخلقة . وكذلك الماركيز دى ساد كان قصيرا ، بدينا ، زيتى البشرة ، قذر التفكير ..

ويكمن سر الماركيز دى ساد فى حبه لاحداث صدمة لمشاعر الناس واثارة استنكارهم . وقد كان غنيا وضعيف الشخصية والارادة ، فلم يجد ما يشغل به باكورة شبابه سوى قضاء أوقاته فى المواخير .. ثم خطف طباخة أو خادمة الى أقبية قصره وتسلى بصب الشمع الساخن على جسدها العارى ، فقبض عليه .. وكثر بعد هذا تردده على السجون بتهم مشابهة لهذه ، وهناك غالبا كتب سلسلة من الكتب أراد بها أن تكون صفعة على وجه المجتمع ، منها « جوستين » و « جولييت » و « ١٢٠ يوما فى سدوم » — الموطن الأصلى للوط — وفيها صور كل أنواع الناس المحترمين ، من قضاة ونظار مدارس ، وهم يقترفون شتى أنواع الشذوذ الجنسى . وانتقم فيها من النساء الشريفات بأن جعل بطلاته الفاضلات يتعرضن للاغتصاب العنيف بين كل صفحة وأخرى من كتبه . وكانت دعواه أن الفضيلة عاثرة الحظ ، أما العهر فله فى النهاية النصر ..! وأهم ما يكشف عنه فى كتاباته تعرية الحافز الجنسى لدى الرجل وبيان ما يتصف به هذا الحافز من العنف والعدوانية التى تحاول الحضارة تمويهها بالتهذيب والعواطف الرقيقة .

وأهم ما نلاحظه على السادية (أى التلذذ الجنسى بالأيلام البدنى والمعنوى) **أن الساديين فى الغالب أغبياء ، وأن وحشيتهم تزداد مع الممارسة ، الى أن يقترفوا جرائم التعذيب الدموية ، والقتل . والى هذا الفريق تنتمى كل الجرائم الجنسية البشعة التى تكتشف ضحاياها فى الحدائق العامة والأماكن البعيدة عن العمران** . ويثبت غالبا أن الضحية تم تعذيبها ساعات طويلة قبل أن يتم اغتصابها ، وعلى أثر ذلك طعنت ، أو ذبحت ، أو استقرت فى رأسها بضع رصاصات !.. والدليل على « تعاسة » أولئك الساديين أن المجرم ما لم يسقط فى يد الشرطة فانه ينتحر من تلقاء نفسه ، بعد فترة من الوقت ، عندما يكتشف أن أقسى الجرائم لم تعد تكفى لامتاعه بلذته « المرضية » !

وقد ثبت من الأبحاث الدقيقة أن منشأ هذه الانحرافات كلها هو حرمان الطفل فى نعومة أظفاره من الحنان ، مما يجعله غير قادر على الحنان أو الرحمة . وأجريت تجارب من هذا القبيل حتى على الحيوانات الصغيرة ، كالكتاكيت والفيران ، أدت الى نفس النتائج . فالتوافق الاجتماعى بذرته الأولى الشعور بالحنان فى الطفولة . وبدون هذا الحنان يعجز الكائن عن التوافق مع قواعد المجتمع ، ويشب لصا ، وقاتلا ، ومغتصبا للأعراض . وأكبر مثل على هذا ما حدث لمارلين مونرو . لقد كانت عندما انتحرت – فى عام ١٩٦٢ – أشهر كوكب سينمائى ، وفى السادسة والثلاثين من عمرها ، واسعة الثراء ، بارعة الجمال . فلماذا قتلت نفسها ؟ نجد الجواب فى السنوات الأولى لطفولتها : فهى لم تعرف أباها قط ، لأنه هجر أمها وهى بعد فى بطنها ، ولم يكن قد تزوجها رسميا . وكانت أمها مهتزة العقل ، وانتهى أمرها بالجنون المطبق . وبذلك تنقلت مارلين الصغيرة بين البيوت التى تبنتها . وفى التاسعة من عمرها اغتصبها أحد السكان فى بيت الأسرة التى

تأويها ، وقضت عامين فى ملجأ للأيتام .. وهكذا شلت جذور العطف والاستقرار النفسى فى أعماقها ، فلما آن لها أن تستقر وتسعد بالزواج ، عجزت عن أن تعرف لذلك كله طعما . وعجزت عن الثقة بالحياة وهى مقبلة عليها بالمجد والجاه والشهرة . لأنه ما من عادة يصعب التغلب عليها كعادة الخوف أو الفزع . ومارلين كانت فى خوف دائم من الحياة ! ولم تجد لها خلاصا من الخوف الا بالانتحار !

هذا الأدب المكشوف ..!

◉ **والآن** فلنلق نظرة أدق وأقرب على « الثورة الجنسية الكبرى » فى القرن العشرين . وخير منطلق لهذه النظرة أدب القرن العشرين نفسه ، لأنه من المشكوك فيه جدا أن تكون هذه الثورة الجنسية ممكنة لولا كتب من قبيل « عشيق الليدى شترلى » ..

لقد كان القرن التاسع عشر قرن الحب الرومانسى . وكانت الفكرة الأساسية لدى الناس يومئذ أن لا شىء يضارع فى الدنيا استقرار حبيبين ليعيشا معا فى سعادة الى الأبد ، أو على الأصح الى أن يفرقهما الموت . وما زلنا نجد أكداسا من هذا الحب الرومانسى فى أيامنا هذه معروضة بصورة مضحكة فى المجلات النسائية الواسعة الانتشار . أما فى القرن التاسع عشر فكان التعبير عن هذا الحب بأقلام بعض كبار الأدباء ، كما يبدو ذلك فى صفحات « مرتفعات ويذرنج » وما الى ذلك . ولأن هذه الكتب أعمال فنية عظيمة فهى تستطيع أن تقنع القارىء بأنها صادقة ، وأن الحب الرومانسى حقيقة . **ولكننا اذا دققنا النظر وجدنا ذلك القرن ليس رومانسيا كله ، فاكبر كتابه : ديكنز ، وثاكراى ، وتولستوى ، ودستويفسكى ، وأبسن ، لم يكونوا يكترثون بالحب الرومانسى**

كثيرا ، بل كانوا يتركون حمل رايته والدعاية له عند سواد الناس للمستويات الرخيصة من فنون الترفيه وكتبه ..

وعندما تجاسر فلوبير على كتابة رواية واقعية ـ « مدام بوفارى » ـ عن امرأة حطمت زواجها الشرعى المقدس فى سبيل جوعها الضارى الى الحب الرومانسى ، اتهمه الناس بالخسة والقذارة . وبعد ذلك بسنوات قليلة حدث هذا الشىء نفسه لابسن عندما عرض على المسرح صورة بديعة لزواج رومانسى فى مسرحيته « بيت الدمية » ، ثم جعل هذه البطلة تهجر زوجها وأطفالها لتبحث عن نمو شخصيتها الحرة المستقلة . وكأن ابسن يقول للناس بصراحة قاسية : « ان كل هذا الحب الرومانسى أكذوبة سخيفة ، فالحياة قد منحت للانسان كى يحقق فيها أمورا أهم من هذا وأولى بالاهتمام ! »

وقرب نهاية القرن التاسع عشر كانت الثورة الجنسية قد نضجت تحت السطح الخارجى للأفكار السائدة ، وهز « برنارد شو » المشاعر عندما صور فى مسرحياته نساء مستقلات التفكير ، لديهن المبادأة فى الحب ، فاذا وقع اختيارهن على رجل لم يترددن فى الهجوم واعلان الحب عليه ! و « ويلز » كاد يتعرض للمحاكمة لأنه نشر روايته « آن فيرونيكا » عن فتاة صغيرة السن تستمتع بلا خجل ولا حرج بالحب الحر .

« عشيق الليدى شترلى » .. و « نساء عاشقات »

● وفى سنة ١٩١٠ نشر لورانس أولى رواياته ، وتعرض للمتاعب لصراحته البالغة بصدد الجنس . ولما نشر روايته « نساء عاشقات » صودرت فعلا ! ولكن لورانس كان شاعرا ومصورا قبل كل شىء . وهو ـ كأى شاعر أصيل ـ كان يشعر أن معظم الناس عمى ، صم ، بكم ، عن كل ما هو جوهرى فى الحياة ! وفى اعتقاده أن الجنس ـ بمعناه العميق ،

لا الأهوج السطحى - من أهم عناصر الحياة ومكوناتها الجوهرية ، وأن الحياة العصرية تزداد بمرور الأيام ضحالة وتفاهة ومسخا . ولذا تعمد فى أهم رواياته المعبرة عن أفكاره - وهى عشيق الليدى شترلى - أن يبين ما تشعر به امرأة ضائعة حائرة ، وكيف أنها وجدت احساسا أعمق بالواقع وبالحياة فى علاقة غرامية مع حارس الصيد ، فى كوخه وسط الغابة ...

ولكن لورانس ، برسالته عن أهمية الجنس بالمعنى العميق ، كان نغمة فريدة فى مهرجان الثورة الجنسية الصاخب ، فمعظم الثوار الآخرين لم يكن لديهم أى غرض بناء ، وانما هم هدامون ، كل همهم تقويض المحرمات السائدة والاستهزاء بالعاطفيات الرومانسية ، فنزلوا بالجنس الى مستويات سطحية تافهة حيوانية .

ولعل أوضح علامة على طريق هذه الثورة كان كتاب « يوليسيز » الذى نشره « جيمس جويس » الايرلندى قبل ظهور عشيق الليدى شترلى بست سنين . وقد قال معظم الناس أن « يوليسيز » أبذأ كتاب أخرجته المطابع ، ففيه مشهد كامل يدور داخل ماخور للدعارة ، ويفيض بألفاظ لم تطبع فى كتاب من قبل ! وكلمة الختام فيه قبلة يطبعها الزوج على جسد زوجته الذى لم يزل نديا من أثر عناق عشيق لها ، أسهب المؤلف فى وصف اتصاله بتلك المرأة الهلوك !

جيمس جويس ، و « فوكنر » أفسدا الجيل !

● **والواقع** أن قصة « يوليسيز » كانت بداية طوفان الأدب المكشوف الذى جرف كل العوائق ، وصار يملأ الأسواق بطبعات رخيصة لا تتجاوز نصف الريال ! وبها أيضا بدأت المعركة بين أنصار الحظر وخصومه .. ولم يكن « جويس » أول من تعرض للمتاعب بسبب البذاءة أو الفحش ، فحتى

« توماس هاردى » تعرض لها بسبب قصته « چود الغامض » ، واميل زولا بسبب معظم قصصه . ولكن الواضح أن هذين كانا واقعيين لا أكثر ، ولم يقصدا الاثارة . أما « يوليسيز » فكان التصريح بنشرها فى سنة ١٩٣٠ فى انجلترا وأمريكا بداية عهد جديد فى الأدب المكشوف ، فها هو الروائى الأمريكى « فوكنر » ـ الحاصل فيما بعد على جائزة نوبل ـ يحذو حذوه فى روايته « الملجأ » التى لا تقل بذاءة عن قصص غيره من كتاب الجنس !.. **وقد أصبحت قصة فوكنر هذه قدوة تحتذى فى الأدب الأمريكى خاصة ، فما حانت سنة ١٩٣٩ حتى كانت هناك ملايين من الروايات الرخيصة تدور كلها حول العنف ، والعصابات ، والجنس ، والاغتصاب ، والسادية . ومن أشهر هذه القصص : « لا أزهار للآنسة بلاندش »** التى تدور ـ مثل قصة فوكنر ـ حول فتاة غنية ، ابنة مليونير ، فى السابعة عشرة من عمرها ، اختطفتها عصابة تتزعمها امرأة لها ابن وحيد مصاب بالانحراف الجنسى ، فهو سادى المزاج ، يتفنن فى التلذذ بالتعذيب ، وكل اهتمامه الجنسى ـ قبل أن تقع عينه على الآنسة بلاندش ـ موجه الى الغلمان . وكان من رأى العصابة قتل الآنسة بمجرد الحصول على الفدية ، ولكن الزعيمة قدمتها هدية لأبنها ـ واسمه سليم ـ الذى أخذ يمارس معها كل ما خطر بخياله المريض من أنواع الانحرافات الجنسية . وفى النهاية يتمكن رجال الأمن من انقاذها ، ويخر سليم قتيلا أثناء المعركة .. ولكنها لا تلبث أن تنتحر بعد قليل لأنها لم تعد قادرة على الحياة الطبيعية ، بعد أن أفسدها المأفون « سليم » !

وقد أصبحت هذه القصة نموذجا لموجة القصص العنيفة التى صدرت فى أوائل الأربعينات ، أى الى نهاية الحرب العالمية الثانية تقريبا ، ولقيت انتشارا هائلا طبع أفكار

الجمهور بطابعه . وكلها كتب رخيصة الثمن جدا كان يتداولها المراهقون ، وهى خالية من أى بطولة ، ومن أى اعتبار للقيم : فالشرطة مرتشون ، ولا يختلفون عن رجال العصابات الا فى أنهم موظفو الدولة ! ولم تزل هذه الموجة سائدة الى اليوم . وهى ثمرة مباشرة لقصة فوكنر ، وقصة فوكنر ثمرة مباشرة ليوليسيز .. وهــــذا دليل كاف على أن أنصار حظر نشر « يوليسيز » كانوا على حق فى مخاوفهم !

رواية « جيمس بوند » .. و « لوليتا »

◉ **وبعد** ســنة ١٩٥٠ ، أحدث « ايان فلمنج » موجة جــديدة فى روايات العصــابات والأدب المكشوف بسلسلة مغامرات « جيمس بوند » . وهى رغم انها أكثر اتقــانا من سابقاتها فى الأربعينات ، الا أنها فى نهاية المطاف أعمال قذرة متعفنة ، فما هى الا تجسيم لأحلام اليقظة التى تجول بخاطر تلميذ مراهق عامى الذوق ، فالجائزة التى يحصــل عليها جيمس بوند دائما بعد كل انتصار هى فتــاة بارعة الجمال تلقى نفسها فى أحضانه بعد لقاء عابر !.. **ويحرص المؤلف على أن يجعل روايات جيمس بوند تتضمن كل أحلام المراهقين ، بكل سذاجتها وسطحيتها . ويخرج منها القارىء دائما بذلك الاحساس الذى توحى اليه به « لا أزهار للآنسة بلاندش » وهو أننا نعيش فى عالم بلا قيم ، ولا شىء فيه سوى العنف والحيوانية والشهوة الجامحة !**

.. واستمرت الثورة الجنسية الى اليوم ، فكانت أولى طلائعها بعد موجة « جيمس بوند » هى قصة « لوليتا » بقلم فلاديمير نابوكوف . وقد نشرت فى باريس ســـنة ١٩٥٥ ، وتدور حول اغواء رجل ناضج لفتاة فى العاشرة من عمرها ! وتمتاز بجودة الأسلوب ، ودقة الوصف للانفعالات . وليس

الانحراف الجنسى فيها هو مادتها الأساسية ، بل يدور موضوعها حول الجوع الجنسى الذى لا يعرف الاشباع فى عصرنا . وما لوليتا الا نموذج لملايين البنات الشهيات (رغم صغر سنهن) اللواتى ينظر اليهن الرجل كما ينظر الطفل الى واجهة محل للحلوى ! وعلى هذا الأساس أمكن نشر لوليتا فى أمريكا وانجلترا بدون حظر ، لأنها عمل أدبى له قيمته الفنية . ثم ان المشاهد الجنسية فيها غير صريحة ، اذ يترك المؤلف العمل الجنسى وتفاصيله لخيال القارىء . وبذلك سقط حاجز آخر من حواجز حظر الأدب المكشوف ، وأصبحت الخطوة التالية الطبيعية اباحة نشر « عشيق الليدى شترلى » علنا فى أمريكا ، فغدت ذائعة الانتشار ووزعت مئات الألوف من النسخ . وكان من الممكن أن تنشر فى انجلترا فى طبعة غالية الثمن بدون اعتراض ، لولا أن ناشرا انجليزيا كبيرا تعاقد على نشرها فى طبعة شعبية ضخمة . ورفعت قضية ضد الكتاب ، ولكن الحكم صدر باباحة نشرها فى انجلترا سنة ١٩٦٠ ، فلقيت رواجا هائلا ، وحققت أرباحا طائلة .

« هنرى ميلر » .. و « جان جينيه »

◉ **وكان** من الطبيعى أن يبحث الناشرون الأمريكيون خاصة عن أعمال أدبية من هذا النوع ، ويتنافسون فيما بينهم على شرائها . وكان « هنرى ميلر » على رأس القائمة بالطبع ، فكتابه « مدار السرطان » هو الضالة المنشودة والنموذج الوافى بالغرض . وقد صدر فى الثلاثينات فى باريس ، وظل يباع للسائحين الأمريكيين خلسة !.. وبمجرد نشره فى أمريكا اكتسح الأسواق ، وتلته على الفور كتب هنرى ميلر الأخرى ، مثل « مدار الجدى » ، و « الربيع الأسود » ، و « الصلب الوردى » .

وبعد كتب هنرى ميلر بحث الناشرون عن أعمال « كلاسيكية » فى الأدب المكشوف ، فوقع اختيارهم على « فانى هيل » لمؤلفها كليلاند ، وهى مذكرات بائعة هوى ، وقد صدرت سنة ١٧٤٩ ، وظلت تباع خلسة برواج كبير منذ ذلك التاريخ . وتروى قصة فتاة ريفية ساذجة جميلة حضرت الى لندن ، واستدرجها أبناء السوء الى ماخور للدعارة ، ولكن صاحبة الماخور عشقتها ، وكانت مصابة بالجنسية المثلية ، واستأثرت بها بعض الوقت . ويروى المؤلف التفاصيل بكل صراحة . ولا يكفيه هذا بل ينتقل الى مرحلة أخرى ، وهى اشتراك الفتاة مع صاحبة الماخور فى لذة منحرفة هى التلصص من ثقب بالجدار على خلوات بقية النزلاء .. وتعشق « فانى هيل » أحد الرواد فتهرب معه ، وهو من أبناء الأشراف ، ويعدها بالزواج فتستسلم له ، ولكن أهله يرسلونه الى الخارج ليبعدوه عنها ، فتعود الى حياة الدعارة .. وفى نهاية مغامراتها يعود حبيبها من الخارج ثريا ، مستقلا بموارده ، فيتزوجها .. وتستقر حياتها فى اطار من الاحترام !

وكانت نتيجة كل هذه الاباحية فى النشر أن بدأت تلك الكتب تفقد سحرها . ولم يعد الجنس كافيا لترويج مئات الآلاف من النسخ .. وصار واضحا أن نجاح أى كتاب جنسى يتوقف على تضمنه « وجهة نظر » معينة .

وهذا ينطبق أيضا على الكاتب الفرنسى « جان جينيه » الذى أبيح نشر كتبه « الممنوعة » فى انجلترا وأمريكا فى السنوات الأخيرة . وهو فى قصصه يحاول أن يمثل المتمرد الكبير ، والمجرم العظيم ، والمنحرف الذى لا يخجل ! **بيد أنه لا يفلح الا فى اقناع القارىء بأن الانحراف والجريمة مرادفان لعدم النضج . فالانسان الناضج أقرب ما يكون الى الاتزان**

أو التوازن النفسى . وكل هذه الكتب لا تترك فى النهاية لدى القارىء الا شعورا رهيبا بالتقزز والغثيان . وبأن هذه الفوضى الخلقية شىء يختلف كل الاختلاف عن التحرر أو الحرية !

أجل ان الفوضى هى الصـفة التى تتلخص فيها روح العصر . وهذه الاباحية فى نشر الكتب الجنسية بلا ضـابط انما هى تطبيق خاطىء لشعار حرية الفكر وحرية النشر . فليس معنى الحرية ألا تكون هناك مستويات وقيم . **وكأن دعاة هذه الاباحة حين يزعمون أن حظر بعض الكتب الجنسية المكشوفة اهدار للحرية يزعمون أيضا أن الحرية مهددة لأننا لا نبيع الخمر والسجائر فى كانتين المدرسة الاعدادية !** ان هذا الحظر انما يقصد به حماية القصر الذين لم يكمل نضجهم ، ولا يقدرون على حفظ توازنهم . وكما نمنع عنهم فى المدارس الخمر والسجائر ــ وهما متاحان للكبار فى الشوارع والأندية ــ نمنع عنهم أيضا هذه السموم الجنسية التى لا يعرفون لها حسابا صحيحا .

انهم فى البلاد الاسكندنافية يرفعون أسعار الخمور الى مستوى باهظ ، لأن الناس هناك ميالون للاسراف فى تعاطيها ، وبذلك يصبح الثمن المرتفع حائلا دون الافراط فيها . فلماذا لا يحظر نشر الكتب الجنسية الا فى طبعات غالية ، لا تقل عن ثلاثة جنيهات أو عشرة دولارات للكتـاب ، وبذلك يفـكر المراهقون مائة مرة قبل اقتنائها ؟.. لعـل هـذا هو الحل الوسط بين الحظر التام وبين الاسراف فى اطلاق حرية النشر بلا ضابط !

الجنس .. وعالم الغد

● **وما ذكرناه** عن الأدب المكشوف ينطبق فيما أعتقد على موضوع الحرية الجنسية برمتها . فنحن ولا مراء نعيش فى عصر تتزايد فيه حرية الممارسة الجنسية تزايدا مطردا ..

ولكن ما هو الوضع الصحيح لهذه الحرية فى المستقبل ؟
لعل الاجابة عن هذا تأتينا من الاجابة عن سؤال آخر :

— ما الفرق بين رجل مولع بالخمر ، وبين السكير ..؟

والجواب فى هذه الحالة بديهى . فالرجل المولع بالخمر يستخدم كل ذكائه وكل ذوقه ليستمتع بالخمر التى يحتسيها الى أقصى حدود الاستمتاع . أما السكير فيريد أن يحطم كل ذكائه ، وبعد كأسه العاشرة لا يدرى ما يشربه أهو نبيذ ، أو جعة ، أو بوظة !

ومثل هذا يقال عن الحرية الجنسية . فكل شىء يتوقف على مراهقى الغد . فاما أن يكونوا سكيرين جنسيا — وبذلك يحطمون جانبا هاما من ذواتهم — واما أن يتعلموا كيف يستخدمون العقل والذكاء فى أمور الجنس ، وفى هذه الحالة تكون الحرية خالية من الأضرار الوبيلة .

ومن يريد أن يغدو خبيرا فى الأنبذة يبدأ بتعلم شىء عن الكروم ، ومكان استنبات الجيد منها ، وكيفية عصرها ، وما الفرق الذى ينتظر بين نبيذ بوردو ونبيذ برغنديا . وان لم يجهد نفسه فى تعلم هذه الأمور فلن يكون فى وسعه أن يميز الخبيث من الطيب فى الأنبذة ، وانما يستوى عنده كل ما يدخل فمه !

وهذا ينطبق بحذافيره على الجنس . فالفعل الجنسى نفسه بسيط ومتشابه ، مثل عملية فتح زجاجة نبيذ وتجرع ما بداخلها . وهذا هو السر فى أن الأدب المكشوف الذى ليس به الا حديث العمليات الجنسية متشابه ويؤدى الى الملل بسرعة . أما الدراية العقلية والذوقية بأمور الجنس فتحتاج الى تفهم ، واحساس ، وتذوق ، ومعرفة ، وخبرة يستغرق تحصيلها العمر كله !.. **وهذا ما كان يعنيه لورانس بقوله ان الجنس يجب أن يكون شيئا جادا ، جليلا ، عميقا ،**

يستوعب كيان الانسان بأكمله . وبذلك يمكن أن تتلخص كل النساء فى امرأة واحدة ، لا تغنى عنها ألف امرأة !

المسألة اذن مسألة « الكم والكيف » فى صورة أخرى ..
فما أكثر الجنس من حولنا فى هذا العصر ، وما أسهله ! ولكن معظمه ضحل ، سطحى ، تافه ، لا يعنى شيئا ، ولا يترك أثرا باقيا . انه جنس لا يتعدى تأثيره الأعصاب والحواس . ولا يعقبه اشباع نفسى ووجدانى عميق . وهذا ما نعنيه حين نقول ان « مارلين مونرو » أو « بريچيت باردو » رمز الجنس العصرى . فنحن نعنى بهذا أنها رمز للاثارة الجنسية السريعة ، الهينة ، السهلة . وهذا بلا شك ما كان لورانس يعترض عليه بشدة ، ويرى أنه مجرد « اهدار » للطاقة الجنسية ، وتبديد أشبه بسكبها فى بالوعة . وهذا — للأسف — هو الدرك الذى يزداد الجنس فى عصرنا اقترابا منه . تضخم فى الكم يقابله هزال فى القيمة الحقيقية !

ان الحرية ليست خيرا فى ذاتها على الدوام . انها قد تكون أكبر شر ، كما يمكن أن تكون أكبر خير ، وذلك يتوقف على أسلوب استخدامها . وليست حرية الجنس بدعا ولا استثناء من سائر أنواع الحرية ..

ان الحيوان لا يعرف لحياته معنى ولا غاية . ولا يتساءل عن معناها أو غايتها . حسبه أن يعيشها بغرائزه الفطرية . أما الانسان فيتميز بأنه يتساءل دائما عن معنى وغاية لحياته . ولهذا لا يكفى أن يعيش بغرائزه كالبهائم ، وأن يشبع شهوته الجنسية حيثما اتفق ، كلما شعر بالجوع ، **بل يجب لكى يكون الانسان انسانا أن يتعلم كيف يستخدم أهم غرائزه بحيث يحقق لحياته معنى ، ويجعل لها غاية أرفع من الوجود السلبى المنقاد للغرائز .**

بهذا وحده يمكن أن يكون للانسانية غد تتطلع اليه الأنظار !

....

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

هدية منفصلة فى ٣٢ صفحة

كتابى
تصدر عن الشعب مؤسسة صحفية عربية
أخصائيون فى المطبوعات العاجلة
عضو اتحاد الصناعات
الادارة : ٩٢ شارع قصر العينى بالقاهرة - ت ٣١٨١٠ • مكتبة دار الشعب - ت ٢٩٩٩١
التوزيع : مكتبة دار الشعب
الطابع : قصر العينى - ت ٣١٨١٠ - ٣١٨١٨ - ٣١٨١٩ دير النحاس - تليفون ٨٤٤٨١٠
رئيس مجلس الادارة السيد ابراهيم

بعد أعوام مهدا للتحضير والاستعداد الطويل:

كتابي ومطبوعاته

يقدمان لك فى الشهور القادمة - بالتناوب - هذه الباقة من السلاسل الجديدة والأعداد الخاصة:



مكتبة الشباب

وتتفرع عنها هذه السلاسل:

١- التراث العالمى للشباب
٢- التراث العربى للشباب
٣- قصص حياة الخالدين
٤- لكل سؤال جواب



مكتبة أدب السينما

قصص أشهر الأفلام العالمية القديمة والحديثة، مزينة بالصور



ألف قصة وقصة من آداب العالم

مسح شامل لأعظم ألف قصة قصيرة من آداب جميع البلاد، فى جميع العصور..



مكتبة القصص الشعبى

أساطير فولكلورية من شتى بلاد العالم



مكتبة القصص العلمى

ترتاد بك عالم الغد، كما تذهب له البشرية..



مكتبة جريمة لا تفيد

لأشهر كتاب الأدب البوليسى الراقى



مكتبة القصص الواقعى

اعترافات يرويها أصحابها وتجارب يرويها أكبر علماء النفس



مكتبة الحياة الخاصة

لعباقرة الإنسانية



دائرة معارف المرأة

كل ما يهم المرأة أن تعرفه عن نفسها.. وكل ما يهمك أن تعرفه عن نساء العالم منذ فجر التاريخ.. حتى اليوم



مكتبة الرسائل والاعترافات

لأشهر المفكرين والعظماء